

جرجي زيدان

منشئ الهلال

بقلم
أنور الجندي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية

تصدير

مضى جرجي زيدان الى رحمة الله عام ١٩١٤ بعد حياة عريضة حافلة ضخمة ، لم يعرف قدرها الذين عاشوا ابانها · وان عرفوها فهم لم يحيطوا بها . ذلك لان المعاصر يغشاه احيانا الضوء القوى فلا يستطيع أن يراه

والواقفون على المسرح لا يستطيعون أن يحكموا على العمل الفنى كما يحكم عليه المشاهدون له·ولذلك فان الكتاب والنقاد الذين كانوا يقفون مع جرجي زيدان على مسرح الفكر ، لم يصلوا الى فهم الآثار التى حققها فى تطور الفكر العربى ، وأساليب الكتابة العربية واتجاهات البحث التاريخى كما نفهمها نحن الذين جئنا بعدهم

وقد كان من الضرورى أن يمر جيل من الزمن تسقط فيه الحجب، وتزول الغواشى ، وتتكشف الحقائق ، وتتفاعل فيها آثار الرجل خلال البيئات : الادبية ، والعلمية ، والتاريخية ، والصحفية ، عندئذ يستطيع المنصفون تقدير آثار الرجل ، ووزنها ومعرفة قوتها الذاتية ، ونتائج تفاعلها

لقد مر اليوم على وفاة جرجي زيدان أكثر من أربعين عاما ، ومر على انشاء الهلال نيف وستون عاما · ومضى على اصدار أضخم مؤلفاته أكثر من نصف قرن · هذه المؤلفات الضخمة ، لاسيما كتابيه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، و «التمدن الاسلامى» ، وكل منهما يبلغ أكثر من ١٥٠٠ صفحة

ومع الاثر البعيد لهذين الكتابين · ولروايات الهلال · وللهلال نفسه · فان الرجل العظيم الذى شغل نفسه بالبحث بضعة وعشرين عاما من زهرة عمره ، لم يلق ما يستحقه من تقدير ، ولم يصدر عنه حتى اليوم كتاب يتناول حياته بالدراسة ، وأدبه وفكره بالبحث · وقد كان خليقا أن يؤلف عنه أكثر من كتاب أو بحث

وهو تقصير لا سبيل الى انكاره ، أو الاعتـذار عنـه فى تاريخنا الادبى · هذا مع تقديرى لما كتبه عدد من الباحثين من فصـول فى الهلال عن حياة الرجل ، وما الفه عـدد من طلاب العلم من رسالات للجامعات عن جرجى زيدان والهلال

غـير أنه كان من الضرورى أن يدرس جرجى زيدان دراسـة موضوعية ، وفق أصول البحث العلمى من جيلنا · هذا الجيل الذى استطاع أن يعيش فى ظل آثار جرجى زيدان ومدرسته ، والتيارات التى أجراها فى ميدان الفكر ، والتاريخ والادب ، والتى بدأ تفاعلها فى أدبنا المعاصر يأخذ دورا ايجابيا واضحا

ذلك أن المدرسة العلمية فى التفـكير ، والموضوعيـة فى الادب ، ومدرسـة الاسلوب التلغرافى ، والبحث العقلى القـائم على الاستقراء مدينة كل الدين للرجل الذى رسم لها الطريق ومهد لها السبيل ، وفتح امامها الآفاق ، وتحمـل المتاعب الاولى التى تواجه كل رائد جديد ، يسلك بالناس طريقا غير مطروق،ويفتح أمامهم بابامن أبواب التجديد كان مهوبا وموصدا ، وكان الرجعيون يقفون بالمرصاد لكل من يقترب منه

لقد احتمل جرجى زيدان مشقةالريادة ، وجدل الجامدين،واسفاف المغرضين ، وأعرض عن مجادلة المعوقين ، ولم يحسب حسابا الا للعلم وحده · وللعمل الخالص الصادق الباقى ، وانطوت هـذه الزوابع وذهب الزبد جفاء ، وبقى جرجى زيدان وآثاره تنفع الناس

ولقد كان الشعور بأهمية دراسة جرجى زيدان يملأ نفسى منـذ وقت طويل ، منـذ عشر سـنوات كاملة · منـذ بدأت أدرس الادب العربى المعاصر من نفس الخط الذى وقف عنده العالم الكبير · وفى خلال هذه الفترة الطويلة ، وخلال دراستى المتعـددة للجـذاذات والفصول والابحاث ، للصحف والمؤلفات التى صـدرت منذ اوائل القرن العشرين حتى اليوم كنت احس بمدى الدين الذى وضـعه هذا الرجل فى اعناقنا . كنت اشعر بمدى الاثر الضخم الذى اذابه

فى أفكارنا . كنت القاه فى كل انتاج حديث ظهر بعده . كنت القـاه فى العقاد ، واحمد امين ، وسلامه موسى ، وهيكل ، وكثير غيرهم

ولقد دفعنى هذا كله الى أن أدرس حياة هذا العالم العلامة ، فلما أخذت أبحث حياته وأتعمق كتاباته ، ملأ روحى اعجابا وتقديرا بطابعه النفسى المتواضع الكثير الاعتداد . الذى هو بالسنبلة من القمح اشبه ، تنحنى لأنها مليئة . فيه الخلق الى جوار العلم . وفيه البسـاطة الى جوار العمق . وفيه الروح الى جانب العقل ، ولطالما كان العلماء مثلا من أمثلة التواضع والحياء

لقد رأيت حياة جرجى زيدان وهى تبدأ متجهمة قاسـية جافة ، ولكنها لا تجد من النفس الكبيرة ، التى وهبها الله اياه ، الا مزيدا من الجد والعمل والكفاح الطويل ، فى سبيل الوصول الى الهدف المرصود ، والغاية المرجوة . ويظل جرجى زيدان يحرر روحه القوية المضيئـة من آسار الحياة المجهدة المنهـكة حتى يتحرر ، وينتصر ، ويصل الى الذروة ويصبح عالما فذا بعيد الأثر فى حياة الأدب العربى والفكر العربى ، والصحافة العربية

واذا كان قد أتيح لى اليوم أن أقوم بهذا الواجب الادبى عن جيلى فى دراسة جرجى زيدان ، والبحث فى آثاره واتتاجه ، فانما أود أن أكون متجردا للغاية ، منصفا للرجل ، واضعا نصب عينى مسئولية المؤرخ والناقد ، التى لا تعرف المجاملة ولا تنحرف عن احقاق الحق

وانى أعتقد أن جرجى زيدان كان رجـل عقل ، ولم يكن رجـل عاطفة . وكان يؤمن بحرية العقل وكلمة الحق . وكان يرحب بالنقد ولا يضيق به فى حياته ما دام صادرا عن نفس منصفة ، لا يشوبها هوى ولا يدفعها قلق

وفى حدود هذا الاتجاه ارجو ان اواجه حياة جرجى زيدان وآثاره

حياته

- حياته العامة
- شبابه
- ثقافته
- شخصيته
- أسلوبه ومذهبه الأدبي
- تجربته وخبرته

حياته العامة

حياة قصيرة اذا قيست بالسنوات ، فقد قضى جرجى زيدان فى الثانية والخمسين ، وهو عمر قصير بالنسبة لأعمار كثير من المفكرين والأدباء الذين بلغوا سن السبعين أو تجاوزوها . وقد كان يمكن لو امتد العمر بمثل هذا الرجل ، الذى شغل كل دقيقة من وقته بالعمل ، ان يقدم مزيدا من العمل الادبى والفكرى ، يضاف الى آثاره التى قدمها ، فغدت مرجعا لكل باحث

ولعله كان قد أعد عددا من الابحاث ، لم تزل تحتاج الى مزيد من المراجعة والمقابلة ، لتستوى كتبا وآثارا يمهد بها للباحثين ، فتكون المراجع الأولى لفن او لآخر ، كما كانت كتبه عن التمدن الاسلامى وآداب اللغة العربية والانساب،وطبقات الخلق أو علم الفراسة.اذكان فى هذه الابحاث كلها رائدا فى العربية لم يسبق ، وان سبق فقد كان هو موسوعيا شاملا، لايستغنى عنه اذا ماطلب الباحثمراجع، فيها من الشمول ، وفيها من التجرد ، وفيها من الوضوح والاعتدال

فقد استطاع جرجى زيدان ان يكسب ثقة قارئه باسلوبه الواضح، واعصابه الهادئة ، وعباراته النقية ، وطريقته المستانية التى ترضى الباحث ، وتعطى للقــــارىء الراحة النفسية التى تجعله يمضى فى القراءة ، ويوغل فيها ، وقد ملأه اليقين بصدق الباحث وســلامة اتجاهه

غير ان حياة جرجى زيدان ، وان كانت قصيرة فى عدد السنين ، فقد كانت عريضة ضخمة موفورة عميقة . ولعل عمقها وعرضها هو الذى قصر بها وانهاها باكرة . اذ كان ينفق من وقته واعصابه ما يعجز عنه الانسان الطبيعى — على الرغم من ضخامة جسمه ، وقوة بنيته، وسلامة نفسه، وصدق عزيمته . وماظنك برجل كتب فى اثنين وعشرين عاما أكثر من ٣٥ الف صفحة ، ما بين رواياته

ومؤلفاته والهلال . ولم تكن هذه الكتابات انشائية ، اذن لكان ذلك مقبولا ، وانما هي ابحاث عقلية ، راجع لها مئات المؤلفات الانجليزية والالمانية والعربية . قراها واستوعبها ، وحاول ان يربط بينها ويصفيها وينقى آراءها ، ويقلب اصدق رواياتها ، ثم يسيغها ويهضمها ، وينقلها الى مؤلفات لها طابعها العلمى

لا شك ان هذا الجهد الضخم الذى بذله جرجى زيدان ، فى هذه الفترة الباكرة من عمر المفكر العربى المعاصر ، من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وفى زمن كان التقدير المادى للادب ضعيفا وقليلا . ومع نفس عزوفة بطبعها عن التملق او التزلف او اصطناع اساليب الكسب الذليل ، كان من شان كل هذا ان يعجل بنهاية العالم الذى كان يعتمد على قوته الذاتية واعصابه القوية ، ويكتفى بالقليل ويرضى بالضرورى ، ولايتطلع الى الكماليات اوالمظاهر

وحياة جرجى زيدان الفكرية الخالصة ، هى عمره الادبى ، فى خلال اثنين وعشرين عاما ، من عام ١٨٩٢ — ١٩١٤ ، وما سبقها انما كان تحضيرا واعدادا ، لهذه الدفعة الضخمة التى تشبه الى ابعد حد حياة الاعلام من ادباء العرب الذين سبقوا فالفوا مئات من الكتب . ففى خلال هذه العشرين عاما اخرج جرجى زيدان اكثر من ثلاثمائة مجلد من الهلال والقصص والكتب . اخرجها فى صبر وايمان يجابه الصعاب فيها بعزيمة المؤمن ، ويواجه المتاعب فيها بروح العالم . يكتب ويراجع ويصحح ويعد الصور والخرائط والاغلفة . ثم يشرف على كل مايتعلق بالتوزيع والتصدير والحوالات والبريد والرد عليه . ومحاسبة المشتركين والموزعين . كل هذا كان يفعله فى صبر وثقة واناة

ولطالما وقف وراء «الرخامة» التى تجمع عليها الحروف ، ساعات وساعات ، وهو يكتب ويصحح ، يكمل فصلا ويختصر آخر ، ويرسل « كلشيهاته » الى اوربا ليصنعها هناك

وهو بين كل هذا المشاغل يقرا ويكتب ، عشرات من المؤلفات والصحف والمجلات كانت ترد اليه من اوربا . ما من كتاب عن

العرب او الاسلام او الأدب العربى الا ارسل فى طلبه وقراه وانتفع به

كانت مكتبته عامرة ضخمة : الجذاذات والملفات والمجلدات بها تزحم اركانها، ولا يستطيع احد أن يمد يده اليها أويحاول تنسيقها. تضم مراجع فى مختلف أنواع البحث التاريخى والاجتماعى والأدبى

وفى حومة هذا المعترك كان يعيش جرجى زيدان ، معظم الوقت ، مرتب الذهن ، طيب النفس ، يقسم وقته بين العمل وبين المقابلات وكانت له جلسات طيبة في بيته تحفل بأهل الفكر والأدب . وكان كل «عصر» يجلس فى مكتبة الهلال بالفجالة ، ويلتقى فيها بالمفكرين والباحثين والشباب ، وقد لقيه فيهـا شباب أصبحوا بعـد كتـابا كبارا ، منهم العقاد ، والزيات ، وانطون الجميل

***

ومن العجيب أن جرجى زيدان بدأ هذه المرحلة من العمل الفكرى فى سن الثلاثين

ولكنك لا تحس وأنت تطالع آثاره بأنه فى أول الشـباب حيث النفس مستطيرة ، والعقل لم يكتمل نضجه ، وانما ترى أسلوبا واضحا وروحا فيها عمق التجربة ، ومظهر الرجولة الكاملة ، وطابع العلماء ...

وعندى أن شباب جرجى زيدان لم يكن فى مظهر اسلوبه او افكاره او كتاباته ، وانما كان فى ذلك الروح القوى الذى ظل الى آخرلحظات حياته شابا فياضا ، متدفقا فى العمل بقوة ، لا يبالى الزمن ولايحس الحاجة الى الراحة . فقد كان مفرعا بالعافية نتيجة لاستقامته ، وبعده عن مزالق الاهواء ، واتجاه مسراته كلها الى العمل الذى وهب له نفسه واعصابه ووقته كله

لم يكن شباب جرجى زيدان فى اسلوب كتاباته ولا موضوعاته ، شأن الكتاب فى شبابهم عندما ينهجون نهجا ثم يتحولون عنه بعد ان ترتفع بهم السن . بل كان جرجى زيدان فى يومه الاول كيـومه

الأخير : منهجا ، واسلوبا ، واتجاها . بل كان شباب جرجي زيدان في مذهبه الادبي . مذهب البحث عن الجديد من الافكار والتحرر من اساليب البحث القديم ونفوره من جمود الآراء التي تريد أن تقف بركب الفكر والحياة عند حد محدود ، كان يتطلع الى الامام وينظر الى الغد ، وينفذ الى المستقبل في قوة وايمان

شبابه

شريط طويل من الحياة، فيه الجبل والبحر، والوادي والصخر ، والظما والتعب ، والسهر والعرق والدموع ، في خلال ثلاثين عاما من شباب جرجي زيدان ، ذلك الذي عاشه الشاب المتطلع الى المجد . بين بيروت والقاهرة والخرطوم قبل أن يخرج الهلال عام ١٨٩٢

انه قصة كفاح طويل في سبيل العلم، بداها في بيروت مسقط راسه . في مدرسة ابتدائية ، ثم عمل مجهد مع والده في المطعم الذي كان يملكه ، لم يصرفه عن دراسة اللغة الانجليزية في ستة شهور . ثم تصميم على الدرس، واستعداد لكلية الطب، واجازة في الصيدلة . ثم سفر الى القاهرة لاتمام دراسة الطب. ثم عمل في الصحافة في جريدة الزمان . . ثم سفر الى السودان مع الحملة النيلية . ثم عودة الى مصر . ثم عودة الى دمشق . ثم اتصال بالمجمع العلمي . ثم دراسة اللغات العبرية والسريانية . ثم عمل في المقتطف

انها عشر سنوات قضاها جرجي زيدان مع والده . . لم تمنعه يوما واحدا من التفكير في مستقبله ، ولا في هدفه الذي أحبه وملا عليه نفسه . وهو الادب والصحافة والكتابة

لقد كانت تمهيدا طيبا بالرغم من مظهرها المتجهم . ففيها تعلم الانجليزية واتقنها والتقى بطائفة من الاعلام كانوا يزورون مطعمهم . وفيها قابل صفوة من الشباب المتطلع الى المجد مثله . وقرا كتبا عدة وخلالها في المساء انتظم في جمعية شمس البر الادبية

كانت النفس الطموح تدفعه فلا يقف لحظة عن الاستعداد لغايته : غايته القريبة وهي أن يكون طبيبا نافعا في حيه ، تدر عليه

مهنته ما يكفيه ويكفي والديه . وغايتـــه البعيدة وهى الثقافة والكتابة والعلم . هذه الغاية التى كانت حتى ذلك الوقت مبهمة فى نفسه غامضة ، لا يعرف من مرماها اكثر من ان يصل الى قدر من الثقافة ، يؤهله ليكون انسانا عميق الفهم للحياة . ولقد بقيت هذه الغاية مطوية فى نفسه حتى بدأ يؤلف كتـــابه الأول « انساب العرب » عام ١٨٨٥ الذى قدمه للمجمع العلمى الشرقى ثم عمل فى المقتطف عامين مديرا له

هنـاك اشربت نفسه فكرة اخراج « الهلال » الذى ظهر وله سمت آخر مغاير لمجلة المقتطف . فيه طابعه الواضح : « الطابع التاريخى » الذى كان قد توفر عليه بالتاليف والدراسة

ذلك ان « المقتطف » كان مجلة علمية بحتة . وكان للأدب فيها جانب ضئيل ، اما « الهلال» فقد كان مجلة أدبية تاريخية فى الاغلب صورة جرجي زيدان نفسه فى ثقافته واهدافه الفكرية

وان كان جرجى زيدان قد اشتغل محررا فى جريدة الزمان ، بعد حضوره الى مصر ، فان المقام لم يطل به فى هذه الجريدة اليومية ، اذ سرعان ما غادرها ليسافر مع الحملة النيلية الى السودان لانقاذ غوردن

وان كتابه عن « انساب العرب » واتصاله بالمجمع العلمى الشرقى ودراسته العبرية والسريانية ، بعد أن ارتفع به السن ، لتعطينا كلها الدليل الاكيد على وضـوح الطابع الذى بدأت تتبلور فيـه شخصيته . وهو طابع « العالم المؤرخ » وقد اعانه على ذلك قدرة بالغة فى الترجمة ، وطبيعة قوية فى البحث ، مكنته من الاحاطة بها فى سهولة ويسر

وقد رسم جرجى زيدان صورة شبابه فى مذكراته فقال عن دراسته :

« ارسلنى والدى الى المدرسة وانا فى الخامسة من عمرى ، عند معلم اسمه « الياس أو جرجس شفيق » قسيس عائلتنا . وكان

العلم الى ذلك الحين لا يزال محصورا فى رجال الكنيسة . واذكر انني كنت اتعلم عنده القراءة فى المزامير ، وهو اول كتب القراءة يومئذ بعد الهجاء . فكنا نحفظ المزمور من كثرة تكراره ، وكنا نقراه ونحن لانعرفه . والقاعدة ان نقرا بصوت عال ، وهو ماعبر عنه بالتسميع ، وربما قرأ اثنان اوثلاثة معا ، والمعلم جالس متربع وراء صندوقه ، وراسه يكبو على صدره من النوم ، وشخيره يخالط اصواتنا . والقلق اداة للقصاص . ولااذكر انيذقت طعم هذه الالة فى المدرسة ، ليس لفضيلة فى ، **ولكنني كنت كثير الخجل ، شديد الخوف من العقاب ، احب الابتعاد عن اسباب الشحناء**

كنت اشعر بهذا الخلق منذ طفولتي . كنت ابتعد عن كل ما يغضب المعلم او يبعثه على انتهاري او ضربي

وقضيت فى تلك المدرسة سنتين على ما اظن حتى قال المعلم لوالدى : ان جرجى قد ختم درسه وصار « يفك الحرف » فسر والدى سرورا كثيرا . ومعنى ختم القراءة ، انى صرت اعرف اقرا المزامير جيدا . هذا صحيح ، كنت اقرا جيدا ، ولكنى لم اكن افهم ما اقرا

ونقلني والدى الى مدرسة كانت فتحت حديثا فى بيروت . وفى هذه المدرسةاخذت بعض مبادىء الحساب والنحو والخط ، وابتدات افهم وفتحت عيني . واغلقت المدرسة وانا فى التاسعة من عمرى (١٨٧٠) وخرجت منها وانا اعرف مبادىء الصرف والنحو والخط والحساب وقليلا جدا من اللغة الفرنسية ... »

وقال جرجى زيدان : ان والده احتاج اليه وهو فى سن الحادية عشرة ليساعده فى « مطعمه » وكانت عبارته « تعالى يا جرجى لمساعدتى سبعة ايام او ثمانية » فابيت كرها ، لانى كنت احب التعليم كثيرا . ولكني اطعته وانا اعلل النفس بالرجوع الى المدرسة ، فامتدت تلك الايام السبعة الى سبعة اعوام او ثمانية ، قضيتها فى اسواق بيروت بين عامتها ، وانا مضطر لمعاشرة احط الطبقات »

ثم سمع ان صديقا لهم هو « المعلم مسعود الطويل » « قد افتتح

مدرسة يعلم فيها الشبان اللغة الانجليزية ساعة الغروب. فشعرت برغبة لى فى تعلم هذه اللغة ، ولااذكر انى فعلت ذلك بدافع الطمع فى المستقبل »

كان فى الخامسة عشرة ، وكان معه خمسة عشر تلميذا ، مالبثوا أن استصعبوا درس هذه اللغة، فاخذوا يتصرفون عن المعلم. ماعداه ورفيقا واحدا اسمه « درويش صغير » وبعد خمسة شهور قال له المعلم : انك صرت تعرف الانجليزية كما اعرفها انا ..

وقال انه جرب نفسه فى مطالعة كتاب « رحلة كوك » فى جزائر المحيط : « فرايت نفسى اقل كثيرا مما كنت اظن . فاخذت فى الدرس لنفسى . وساعدنى على اكتساب ما اكتسبته لنفسى بالمطالعة ، ونحوها انى كنت **قوى الارادة ، قوى العزيمة ، قوى البنية ، صبورا على العمل »**

ثقافته (١)

قضى جرجي زيدان ثلاث سنوات أو أربعا بعد تركه المدرسة ، لم يقرأ كتابا ولا استفاد كلمة حتى أوشك أن ينسى ما تعلمه في المدرسة . غير أن صديقه خليل الذي كان زميلا له منذ أيام الدراسة قد التقى به ، فغير سبيل حياته ، وكان «خليل» أليفا الى نفسه .. « وقد أحببته كثيرا ونظرت اليه نظر الاعتبار لما آنست فيه من الشهامة والانفة واللطف » وكانا يتواعدان على الخروج للنزهة مرة بعد الظهر الى ظهور الاشرفية أو غيرها ...

وكان شعر المتنبي هو الطائف الاول الذي ملأ نفسه

« وقد أفادني « خليل » أنه كان يحفظ أشعارا كثيرة . ويحسبني أحفظ شيئا ، فكان يقول البيت من شعر المتنبي أو ابن الفارض وهو معجب به . ويتوهم أني فهمت معناه . وكان ذلك جديدا عندي . ولذ لي التفكير في معاني الشعر ، فصرت اقرأ وافسر وازداد كل يوم رغبة في قراءة الاشعار لأن تفهم معانيها كان يزيد رغبتي في مطارحتها ... »

وهكذا كانت « المطارحة » أول خطواته الثقافية ... حببه الشعر في المطالعة ، فاقتنى ديوان المتنبي وابن الفارض ، وهما رائجان في بيروت « فقد أخذت اقرؤهما واتمعن في معاني ما اقرؤه . فاذا وفقت لفهم بيت من الابيات الغامضة ، لذ لي ذلك كأني فتحت بلدا أو لقيت كنزا» ولكنه ما كاد يتعلم اللغة الانجليزية حتى تحول عن هذا الاتجاه العاطفي وبدأ الطريق العلمي ...

كان طوال يومه مشغولا بالعمل في المطعم مع والده ... فاذا جن الليل فانه لا يهجع ليريح نفسه من متاعب العمل طوال اليوم . ولكنه يفزع الى هواه الشريف فيظل يقرأ ويكتب أحيانا الى الصباح

(١) كل مابين الاقواس هو من عبارة جرجي زيدان في مذكراته الخاصة

« ... كنت اضيء المصباح واجعله على الشباك بجانب سريرى ، واقضى ساعات فى الدرس والمطالعة . وكثيرا ما تشرق الشمس وأنا جالس . ودق والدى باب غرفتى مرة . وكنت جالسا اقرأ وأكتب على سريرى فنهضت وفتحت له ، وأنا أحسبه لا يزال ساهرا ، وقد اتى ليحثنى على النوم كعادته ... فلما فتحت الباب رأيت الفجر قد لاح . فسألنى مالى اراك قد استيقظت باكرا هذا الصباح فقلت له : انى لم انم بعد ... فغضب وأخذ ينصح لى أن ارفق بصحتى ..

وبدأ الاتجاه العلمى فى نفس جرجى زيدان فى هذا السن الباكر فى صورة تأليف قاموس للغة الانجليزية والعربية « وقد مضيت فى هذا العمل الى حرف (E) ثم مللت وحق لى أن أمل . لأنى كنت قليل المعرفة باللغة . فلما توقفت عن العمل حزنت حزنا شديدا . اذ سبق الى ذهنى انى خلقت ضعيف العزيمة ، قليل الهمة . وتشاءمت ألا أعمل عملا وأصبر عليه حتى يتم »

وكان — اذ ذاك — فى سن السادسة عشرة ...

وفى هذه الاثناء قرأ كتابا باللغة العربية كان دعامة من دعامات اتجاهه فى خدمة العربية بعد : هو « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجى . « وهو كتاب أدبى وضعه على طريقة المقامات . وكان شأنه عظيما عندى لانه ساعدنى على معرفة الفاظ لغوية افاخر اقرانى بمعرفتها .. »

واشترى مع صديق له كتاب « العروس البديعة » لدراسة النواميس الطبيعية

وحفزته مطالعة الشعر الى محاولة النظم فكان ينظم البيت والبيتين لا يعرف وزنهما ولا اعرابهما ...

وقالت عنه والدته تصف حاله « انه يصرف الدراهم فى شراء الورق بلا فائدة »

وفى هذه الاثناء تعرف برجلين عظيمين درس أدبهما من بعد ، وكتب

عنهما واصبح عالما مثلهما : هما ابراهيم اليازجي وبطرس البستاني

وقد سجل في ذكرياته انه صادق « اليازجي » واحب صحبته . « وما زلت أذكر انه غادر المطعم يوما بعد أن تغدى فيه ونسي نظارته على المائدة فلما لحقت به وقدمتها له ابتسم وقال مداعبا « نسيت عيني عندك . ولكن لا خوف عليهما لاني تركت قلبي عندكم طويلا ولم يصب بسوء »

ولعل اتجاهه الى نظم الشعر يتصل الى حـد كبير بمعـرفته للبستاني، فقد استفاد من اقواله في الشعر واللغة وغيرهما، كما حفظ كثيرا من الشعر الجاهلي الذي كان يتلوه عليه

ثم اشترك في مجلة « المقتطف » فكان يطالعها بدقة ويفخر بانه يقتنيها ، ويحب أن يعرف الناس عنه انه يطالعها . وهنـا يحاول تجربته الاولى في عالم الكتابة فيكتب « المقال الاول » الذى وان يكن لم ينشر الا انه فتح امامه باب الدرس الطويل للوصول الى المنزلة التى تؤهله النشر

« ثم اردت ان اكون ممن يكتبون في المقتطف فكتبت مقالة بالغت في تنقيحها وتنميقها على قدر استطاعتى . ولم أكن حتى ذلك الحين على شيء من علوم اللغة . ولكنى كتبت تلك المقـالة عن احسـاس صادق . ونقدت فيها الآباء الذين يهملون تعليم أولادهم في صغرهم فيشب هؤلاء الأولاد جهالا وتفوت الفرصة لتعليمهم ، وتلك كانت حالي في ذلك الحين، فلما لم تنشر مقالتى لم أسيء الظن . بل اعتقدت انى لم أصر أهلا لنشر مقالاتى ، ولم أكتب لأى صحيفة بعـد ذلك الحين الا بعد ان درست الطبيعيات ، ودخلت مدرسـة الطب حيث تفقهت في بعض فروعه »

وفي خلال هذه الفترة كانت نفسه الطموح لا تنى تؤرقه وتدفعه في سبيل عمل كبير . كان كلما رأى الطلبة الناجحين شعر بانقباض لحرمانه من ان يكون مثلهم وكان يسأل نفسـه دائما : الا يأتى يوم يقف فيه موقف أولئك المتعلمين وبينما هو يفكر ويقدر ، وقع في يده كتاب كان له ابعد الاثر في اتجاهه الفكرى ومستقبله ...

« كنت قد اطلعت على كتاب «سر النجاح» الذى نقله الى العربية الدكتور يعقوب صروف، فهاج فى نفسى النشاط والحماسة، بما سجل من تراجم بعض العظمــاء ممن بلغــوا ذروة المجد والنجاح بجدهم واجتهادهم واعتمادهم على انفســهم . وفيهم ابن الحلاق والاسكاف والصانع والخادم. وكنت كلما قرات شيئا من ذلك اهتاجت مشاعرى واستولى على الارق ولم اجد سبيلا الى النوم ، كما يتملكنى الشعور بالاسى والحزن والانقباض اذ اجد نفسى مقيدا بالاستمرار فى عملى البعيد عن العلم الذى ارغب فى تحصيله والمســـتقبل الذى اتوق اليه »

وتفاعلت فى نفســه المعانى فعزم عزمته وحزم أمره . وصمم على دخول كلية الطب حيث كان له أصدقاء فيها « لاننى بعد تخرجى طبيبا اســتطيع بمــزاولتى لمهنـــة الطب ان اكسب ما أعيش به أنا واهلى ... »

ولكن كيف الســبيل ولم يبق على افتتاح الســنة الدراســية الا شهران ، وهل تكفى هذه الفترة القصيرة لتحصيل علوم متعددة ضخمة مرهقة ، لا بد من اجادتها والامتحان فيها . واســتغرب اصدقاؤه اقدامه على هذا العمل الخطير وقالوا له ان طالب الطب يجب ان يمضى قبل ذلك بضع سنوات لتحصيل العلوم التى تؤهله لدراسة الطب . هذا عدا وجوب تمكنه من معرفة اللغة الانجليزية وعلوم اللغة العربية ، وفى مقدمة هــذه العلوم الحســاب والجبر والهندسة والفلسفة والطبيعة والنحو والصرف والبيان

وقالوا له لا بد من عامين على الاقل ليســتطيع دخــول الطب . ولكنه اختزل العامين فى شهرين والارادة — كما يقول هو — تحقق المستحيل . وعجب الذين يعرفونه لهــذا الجلد العجيب والعــزمة القوية . وكاد هو فعلا أن يتراجع لولا ايمانه بنفســه « هالنى الأمر مرة اخرى . وكدت انثنى عن عزمى فى هــذه المــرة لولا اننى كنت كبير الثقة بنفسى فيما تحتاج اليه من صبر واجتهاد ... »

وحين اعترضته مصاريف الدراسة قالت له والدته الحانية ...

« القسط الاول سبع ليرات عثمانية ... عندى هذا المبلغ . وقد ادخرته منذ حين وساعطيك اياه ... »

ودخل جرجى زيدان كلية الطب عام ١٨٨١ ، وبذلك حقق املا كبيرا ظل يراود نفسه عشر سنين

وفى خلال العامين اللذين قضاهما بها كان فذا فى التهامه العلوم الرياضية والطبيعة، وتلك ظاهرة اخرى فى شخصية جرجى زيدان. فالشاب الذى تعلم اللغة الانجليزية فى شهور ستة ، راح بعدها يلتهم الكتب والمجلدات والقواميس ، ويدفعه طموحه الى ان ينشىء قاموسا كاملا ... يتجه مرة اخرى الى العلوم العسيرة فى كلية الطب بنفس الروح والقوة والثقة بالنفس

فهو يحب الطبيعيات والرياضيات حبا كبيرا ، وشغف بها شغفا عظيما

« أحببت مبادىء الكيمياء ... ولذت لى لذة عظيمة .. ولا زلت أعتقد أن الكيمياء الذ العلوم وانفعها . وكنت منذ أخذت فى دراسة العلوم ، كلما درست علما أحسبه الذ سائر العلوم . هكذا شأنى فى الطبيعيات والرياضيات ، فلما درست الفسيولوجيا والاقرباذين رايتهما الذ العلوم ...

... الا الكيمياء فما زلت اعتقد الى الآن انها الذها جميعا لان الانسان يرى العالم بها غير ما كان يراه من قبل ... »

وليس ادل على أصالة المزاج العلمى فيه من قوله انه وجد فى دراسة النبات لذة ، وخصوصا فى فسيولوجيته وتشريحه لما فيه من النظام والحكمة : وتلك طبيعة العلماء ولا شك

***

وفى كلية الطب ماذا فعل الشاب الطموح الفقير : لقد كان اول ما شغله هو تدبير المال ... فمضى يشتغل اشغالا اخرى يستعين بها على دفع ثمن الكتب والاقساط

ولكنه كان فى ذات نفسه مزوقا من زملائه الطلاب . يرى نفسه غريبا عنهم . وهو بطبيعته المنطوية يحس احساسا جديدا .. « ومع

فرحي بدخول المدرسة كنت أراني غريبا فيها ، كأني لبست ثوبا فصل لسواي . فلهم والدون يحملون عنهم اعباء الأقساط وسائر النفقات . وانا وحدي مضطر الى الشغل للقيام بذلك . وكان صفي مؤلفا من تسعة تلامذة كان نظري اليهم مثل نظري لسائر التلاميذ . وحملني خجلي ووثوبي تلك الوثبة الكبيرة من السوق الى المدرسة الكلية على تجنب الاختلاط بهم فعدوا ذلك منى كبرياء » ..

ثم انصرف عن نفسه هذا الشعور بعد قليل ، واندمج مع زملائه الذين بهرهم تقدمه وتبوغه ، وتاثرت نفس جرجي زيدان عندما رأى اول جثة في كلية الطب « ولا انسى ساعة فتحوا التابوت . وقد تغطت الجثة بالازهار . وفاحت رائحة العنبر لكثرة أوراقه وازهاره، ووقع نظري على جثة ذلك الغلام فأثر منظره في نفسي فما زلت حتى اليوم كلما شممت رائحة العنبر تصورت الجثة امامي .. »

وتعلم جرجي زيدان اللغة اللاتينية . التي تولى دراستها له الدكتور فارس نمر .. ووجد صعوبة في درسها لاول مرة ، ولكنه حصل في امتحانه على درجة كبيرة (٩٩ من مائة) . « وهذا نادر وقومه خاصة في اللاتينية » . ثم نال الامتياز في الكيمياء التحليلية

ذلك لانه كما يقول عن نفسه « كنت اتعلم تلذذا بالعلم لا طوعا لاشارة والدي او ولي امري . فكنت افهم ما ادرسه جيدا .. »

ويضيف جرجي زيدان مهرجان الشهادات في نهاية العام .. «كنت جالسا في مؤخر القاعة فلما بداوا بتوزيع شهادات الامتياز — لمن احرزوا قصب السبق في الفنون التي يدرسونها — رأيت تلاميذ الدائرة العلمية وبعض الرفاق يولون وجوههم نحوي ويضحكون. الى ان وقف الدكتور لويس وبيده شهادة ونادى باسمي واني نلت الامتياز في (الكيمياء التحليلية) فلم ار بدا من التقدم لتناولها فخشيت وقد غلبني الخجل — والناس يصفقون وخصوصا التلاميذ كأنهم فرحون بفوزهم . فوصلت الى الدكتور وتناولت الشهادة ورجعت ، والتصفيق متواصل وانا انظر الى الارض خجلا فسمعت بعضهم

يقول « لا ترجع . انتظر الشهادة الاخرى .. فلم ابال . فما وصلت الى مكانى حتى سمعت الاستاذ بورتر ينادى باسمى وانى نلت الامتياز فى (اللغة اللاتينية) فرجعت والتصفيق ما يزال متواصلا فتناولتها وعدت وانا اكاد اذوب من الخجل ولكن قلبى كان يرقص فرحا .. »

ولكن جرجى زيدان لم يستمر اكثر من عامين فى كلية الطب ، فقد حدث أول اضراب فى سبيل حرية الراى ، وكان له هو زعامة هذا الاضراب . ثم اغلقت المدرسة بعد أن حصل على اجازة الصيدلة . وقد وصفه المترجم له فى مذكراته وصفا مطولا يختصره فى هذه العبارات :

حادث الاضراب فى الكلية الامريكية من اجل حرية الفكر يعد الحادث الاول من نوعه فى الشرق . فقد كان لاخراج احد الاساتذة من الكلية وقع اليم فى نفوس جميع طلبتها . فاجتمعت كلمتهم على الاحتجاج عليه . وشاركهم فى ذلك كثيرون وانقطع الطلبة عن الكلية والفوا لجنة لتقديم احتجاج الى المجلس الاعلى للكلية فى امريكا ، وطلبوا اعادة الدكتور لويس لعدم صحة التهم التى اسندت اليه ولعدم وجود من يحل محله فى تدريس الكيمياء فى الكلية . والتجأت الكلية الى تهديد الطلبة . وابدى الطلبة ثباتا عجيبا فى موقفهم فانقطعوا جميعا عن الدروس وكتبوا اليها محتجين . وارسلت الكلية الى « جرجى زيدان » وهى تعلم انه يلقى مشقة فى سبيل الحصول على نفقات الدراسة — من يقول له أنها تعرض استعدادها لعدم مطالبته بالمصروفات المدرسية اذا هو عاد الى الكلية . فكان جوابه الرفض القاطع . وهنا قررت الكلية فصل الطلاب الذين وقعوا على الشكوى وقرار الاضراب

وهذا الموقف يكشف عن جانب آخر من نفسية جرجى زيدان . فهو الشاب الفقير الكادح فى سبيل اتمام دراسته . يتزعم ثورة من اجل حرية الراى ، ولايقبل التراجع امام الوعيد او الاغراء ولا يبالى فى سبيل الحق الذى يعتقده اى نتيجة ، ولقد كانت هذه

الازمة بعيدة الاثر بالنسبة له . « شعرت بانقطاع حبل الامل وبان جهودى ذهبت سدى »

ولكنه حاول محاولة اخرى . فقد تلقى خطابا من وكيل مدرسة الطب « القصر العينى » بالقاهرة يبدى استعداده لقبول طلبة الكلية الامريكية فى صفوفها بعد امتحانهم ، وبذلك اعتزم السفر الى القاهرة لدراسة الطب بها

ولم يكن يملك نفقات السفر ، ولايدرى كيف يحصل عليها ويحصل على نفقات تعليمه فى القاهرة ، «ولكن جارا قديما لناهو المعلم مصباح المحمصانى علم بالامر ، فاستدرجنى فاعطانى ستة جنيهات ،وابدى استعداده لاعطائى اكثر . فاخذتها شاكرا وضممتها الى ماكان معى من مال يسير . وقد رددتها بعد سنة من وصولى الى مصر وعملى بها .. »

وهذا جانب آخر من نفسية جرجى زيدان يصور الوفاء والاداء

ووصل جرجى زيدان الى القاهرة يريد شيئا . واراد القدر شيئا آخر فقد اخفقت مساعيه فى الالتحاق بكلية الطب فاتجه اتجاها جديدا

شخصيته

ان « شخصية » جرجي زيدان باهرة ولاشك لكل من يحاول ان يدرسها ويتعمق جوانبها ، انها شخصية العصامي الموهوب ، القوى العارضة ، العميق الايمان بنفسه ، القادر على الصمود فى وجه الاحداث ، الدءوب الصارم الذى لا تفتنه المظاهر ولا يخدعه البريق ولا يعشى عينيه الضياء اللامع . الرجل الذى كان فى شبابه شيخاً وفى شيخوخته شاباً . غلب عليه العقل ، وعـرف الاناة والروية والصبر . انه الخجول الحيى الذى لا يغشى مجالس اللهو وهو فى نفس الوقت الجرىء المؤمن بالشجاعة الادبية . الذى يقول الحق دون أن يخاف . والذى يعترف بالخطأ ، ويؤمن بالسلام والبساطة ، ويواجه الامور مواجهة العلم والواقعية

كون نفسه بنفسه ، وبنى عقله وفكره وثقافته بجهده ، حتى بلغ ذروة الحكمة والعلم ووقف فى صف قادة الفكر فى العربية . لم يكن له من عون على هذا العمل الضخم الا ارادة قوية ، وعزيمة صادقة، فقد كان فى اعماقه طبع الراهب العزوف عن مطامع الدنيا وترفها ومادتها وزخرفها ، المؤمن بفنه وفكره ، المتوفر عليه ، الدائب فى تعميقه وتجويده

ان شخصية جرجى زيدان تظهر واضحة من مصدرين :

اولهما : مذكراته التى تركها ونشرت عام ١٩٥٥ فى الهلال وتحدث فيها عن نفسه بصراحة بالغة . هذه الصراحة وحدها تكشف عن شخصيته ، وعن رجولته ، وقوة نفسه ، التى جعلته لا يخجل من ان يعترف بالفقر والحاجة . وقد كان يستطيع ان يغض الطـرف عن هذا الجانب ويتجاهله لولا ايمانه وصراحته وثقته

يقول : « نشأت فى صباى وانا ارى والدى يخرج الى دكانه مع الفجر ولا يعود الا نحو نصف الليل او قبيله . وارى والدتى لاتهدأ

لحظة من الصباح الى المساء . ولا تعرف الزيارات ولا الاحتفالات. ولا المجتمعات ، حتى الدينية ، فشببت على ذلك والفته . فغرس ذلك فى ذهنى ان الانسان خلق ليشتغل وان الجلوس بلا عمل عيب كبير »

هذه هى اللمحة الاولى فى شخصية جرجى زيدان

وفى المدرسة كان ــ كما صور نفسه ــ : كثير الخجل ، شـديد الخوف من العقاب ، يحب الابتعاد عن اسباب الشحناء . وتلك صفة قد توافرت فى جميع النوابغ والاعلام ، اذ كانوا كذلك عزوفين عن المجتمعات ، بعيدين عن مواطن الصراع

يقول جرجى زيدان :

« خالفت سائر التلاميذ من حيث اللعب ، لانى لم اكن ميالا للهو مطلقا ، وكنت اعد ذلك نقصا فى . فلم اكن اطير الطيارة ولا العب بالطابة (الكورة) وبالكلة (البلية) الا نادرا . وقد اقف للفرجة او ارافق التلامذة اذا خرجوا لتطيير طيارة ضخمة ، كان يجتمع اليها ابناء الحى فاتبعهم وانا معجب بمهارتهم فى صنـع الطيارة او تطييرها .. »

هذه لمحة اخرى من طابع نفسية جرجى زيدان

واللمحة الثالثة : عندما انتزع من المدرسة الى العمل مع والده فى السوق ، يقول :

« كنت اتجنب عشرة اهالى سـاحة البرج لانى لم اكن املك من وقتى فراغا للهو ولم يكن من طبعى »

وكان يحب من الملاهى سماع القصص ، كان شغوفا بذلك اشد الشغف :

« فكنت اذا رايت القصاص «الحكواتى» يمشى ذهابا وايابا ، يتلو قصة عنتر او الزير سالم او غيرها ، والناس جلوس يصفقون له وهو يمثل مواقف الحديث باشارته وصـوته ، كنت انسى موقفى واصغى بجميع حواسى ...

« وكان « الحكواتى » يروى على الدوام القصص الاربعة المشهورة يومئذ وهى : فيروز شاه . عنتر . الزير سالم . على الزيبقى

« فاذا فرغت سنة عاد الى اولها فسمعتها غير مرة ولا اعترض على سماعها ولا اشكو من الوقت الذى اضعته فيها .. »

وفى الوقت الذى كان يحب هذا اللون من اللهو البرىء ، كان يكره « كراكوز » ويصفه بانه « تمثيل بذىء كله فحش وسوء ادب »

ولمحة رابعة كونت شخصية جرجى زيدان : هى حبــــه لاهل الشجاعة والحماسة :

« كان يطربنى من احاديث ذلك الدور ، ما كان يجرى بين طائفة من اهل البطالة ، اذ يفاخرون بالشجاعة ، فيزعم احدهم انه لقى جماعة فهزمهم . او انه دخل مكانا مظلما ، ورأى فيه العفــاريت فطردهم ، وكانت هذه الاحاديث تلذ لى وتثير فى الحماسة لتقليد الشجعان واهل المروءة .. »

وكان فى هذه الفترة ــ فترة التكوين النفسى ــ يكره الخمــــر والميسر .. ويوازن بين طابعه النفسى وبين استعداد هذا الفريق من الشباب فيرى البون شاسعا :

« كان تقصيرى عن مجاراة اولئك الشبان فى التفاخر والطــرب والشرب وانا فى نفس الوقت احب العلا واطلب الشهرة ، فرايت مقامى بين هؤلاء كالدجاجة الغريبة .. »

***

ويصل جرجى زيدان الى سن السادسة عشرة ... وهنا يبدأ فى التفكير ، فى الانتقال من طور الى آخر .. وقد بدأت شخصيته تستحصد وتقوى ويطبعها الاستقلال والتحرر :

« اكتسبت شيئا من استقلال الفكر ، فخرجت من دائرةالانقياد الاعمى وصرت اعتد بما يكون لى من راى خاص . وان خالف آراء من حولى . ونما ذلك تدريجيا حتى صرت انتقد آراء الآخرين او اعمالهم ، واحرص على صون كرامتى الشــخصية واغالى فى ذلك

كثيرا . كما ادافع عن رايي ولا اقبل رايا غيره الا بعد بحث واقتناع ... وكان لهذا اثره في اتجاهي العملي في الحياة ، فجعلت نصب عيني أن احافظ على نقاء سريرتي . وان اتجنب الكلام البذيء ، ومعاشرة غير الادباء . وامسكت عن المزاح امساكا تاما ، فغلب الجد على اقوالي واعمالي . وبالغت في الابتعاد عن مواطن الشبهات حتى اصبحت لا ارفع عيني الى وجه امراة ، ولا امر بشارع فيه بيت يخوض الناس في سيرة احد ساكنيه »

ومن هذه اللمحات النفسية تبرز شخصية جرجي زيدان ، وهي تاخذ طابعها الذي عرفت به بعد . هذه النفس المفطومة عن الاهواء ، القادرة على كبح جماح شهواتها واهوائها في هذه السن الخطيرة : سن المراهقة

وقد ادى ذلك الى النتيجة الطيبة :

« لا اخشى أن اصرح باني قضيت ثماني سنوات في ذلك الوسط الخطر ، ثم خرجت منه طاهر الذيل نقي الازار . ولا انكر اني اوشكت ان اقع في الخطر غير مرة ، ولكن سرعان ماكنت امسك نفسي واواصل طريقي وفقا لخطتي الى ان صار ذلك من فطرتي .. »

وهذا هو مفتاح نجاح جرجي زيدان في حياته كلها . وهذا هو سر انتصاره الساحق وارتفاعه فوق زمنه . وفوق الاحداث ، وفوق الاوضاع الطبيعية التي كانت تسير حياته في نطاقها

وقد بقي جرجي زيدان الى آخر حياته ، ليس له من نزوات او صبوات الا لذاته الفكرية واهواؤه الثقافية

هذا الطابع النفسي هو الذي كسب له انتصاراته المتوالية : تفوقه على أقرانه في كلية الطب ، تعلمه اللغـــة الانجليزية في شهور . حصوله على ٩٩ من مائة في اللاتينية . سهره حتى الصباح يقرأ ويكتب بعد يوم شاق من العمل المتصل في محل والده .. كل هذا لا يتاتى الا من طبيعة فيها هذا الفطام عن الشهوات . هذا الفطام نفسه الذي اعطى جسمه القوة ، وصحته العافية ، وامده بالعقل المستنير المشرق والقلب المتدفق ، والعلم الصافي النقي

ولعمرى كم كانت الاهواء سببا فى سحق عبقريات مشرقة ، وتحطيم نفسيات عامرة بالخير ، لو تلفت اصحابها اليها وعملوا على حمايتها لكانوا صفا من صفوف الناجحين فى محيط الفكر او الاختـراع او الفنون

وكان جرجى زيدان ذا ارادة صارمة وهو الذى يقول : ان الارادة تحقق المستحيل

هذه الارادة التى دفعته لان يتم دراسة عامين فى شهرين ، ويختزل العمر فى لحظات فيقفز من الشارع الى كلية الطب ، حتى هو نفسه اذهله هذا الانتصار ، وملأ نفسه توجسا ، جعله ينطوى عن اترابه فترة من الزمن

***

هذه هى ملامح الصورة النفسية لشخصية جرجى زيدان ، كما ترسمها مذكراته التى كتبها عن حياته فى الفترة الاولى منها . وهى تصوره فى مستهل العقد الثالث من عمره . فهل تغيرت شخصيته بعد أن هاجر الى القاهرة ، وذهب الى السودان ، وعاد الى بيروت ، ثم جاء الى القـاهرة مرة اخرى فاستقر بها يعمل فى المقتطف ، ثم يصدر الهلال ؟ . . .

ان امامنا ملامح نفسيته وصورة شخصيته ، كما صورها عدد من أقرانه وتلاميذه الذين التقوا به وعاشروه ، ابان هذه الفترة بعد أن تقدمت به السـن

يقول الاستاذ الزيات :

« كشف لى لقاؤه الجميل ، وحديثه العف ، واطلاعه الواسع ، وتواضعه الجم ، عن طراز من العلمـاء فريد ، لم الق مثله فيمن لقيت من العلماء فى الازهر ودار العلوم والجامعة

«والحق أن جرجى زيدان مدين بعلمه وفضله ونجاحه لاخلاقه . واشد اخلاقه اثرا فى حياته : صدقه ، وجده ، ومثابرته . تخرج فى أكثر العلوم على نفسـه ، وشق طريقه فى الصخر بسن قلمـه ، واختار لجهاده الادبى الميدان البكر ، واعد له ما استطاع من قوة

الصبر وصدق العزيمة ، فانتصرانتصارا عز على غيره ، وعادبالنفع والخير على قومه »

ويقول السيد مصطفى لطفى المنفلوطى «كان مستقيما فى عمله ، امينا فى علائقه لايكذب ولايتلون ولا يخيس بعهده ولاينكث بوعده، ولا يكسو بضاعته لونا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجملها فى عيونهم . يتعلم منه العاملون ان الكذب فى المعاملة ليس شرطا من شروط الربح ، ولاسببا من اسباب النجاح . وكان واسع الصــدر فسيح رقعة الحلم . . فاذا تم لهذه الامة ، فى مستقبل حياتهـــا ، حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ونبالة القصـــد فى جميــع شئونها واغراضها ، فلتذكر انجرجى زيدان احد الذين اســـوا فى ارضها هذه الدولة الفاضلة : دولة الادب والخلق »

وهذا صديقه فى جميع ادوار حياته وزميله فى ايام الدراســـة « سليم سركيس » يصف شمائله « . . عرفناه ايام كان طالب علم فى المدرسة الكلية ، الى ثورة عقلاء الطلبة ، الى قدومه الى القاهرة ، ففى جميع ادوار حياته كان صديقا يروق ويصفو ان كدر الناس عليه . وعرفته الامة العربية فى مشارق الارض ومغاربها نزيه القلم عفيف اللسان ، فى خمســة وعشرين عاما قضاها بين المحابر والاوراق، كان فيها مثلا للمبدأ الشريف « متناظرك نظيرك »

كان صادقا فى صداقته لذويه واصدقائه ومعارفه ، فهوعلى الاطلاق الصحافى الوحيد الذى عاش فى شرقنا وليس له عدو . واعلم علم اليقين انه كان مستشارا لعشرات من الذين كانت مشـــوراته الصادقة سببا لنجاحهم المالى فى التجارة والصحافة : على انه اخطا فى وجهة واحدة فقط ، هو انه كان صديقا للجميع ، ثم كان عدوا لنفســه فلم يشفق على جسمه ولا رحم قواه ، فظلم نفسه وذهب شهيد عمله الشاق . . . »

ووصف نفسيته صديقه نعوم شقير فقال « من اروع خلق الفقيد حب الاستقلال، واحب خلق اليه الصدق . يكره التظاهر والمباهاة ويبعد عن الخصام ، عاش ثلاثة وخمسين عاما . عرفته فى كليــة

بيروت الامريكية ثم فى مصر . وكنت له جارا وصديقا ؛ فما اعلم انه فى حياته كلها تقاضى احدا ، او نازع احدا او كدر صفاء انسان . بل كان يسالم جميع الناس وما حسد احدا على نعمة ولا حقد على احد »

ويصل صديقه خليل مطران فى تصوير شخصيته الى ابعد مدى من الفهم والعمق « .. ما عرفت رجلا اجمع منه للنقيضين ـ الكبر والاتضاع ـ منه . مالم اشهده ولم اسمع عنه انه شكا دنياه بمحضر من احد ولا انه تمنى على احد شيئا باشارة او بمصارحة . كما انى لم اجده مرة مستفزا للاخذ بثاره ممن تهجم عليه فى الصناعة التى هى مدار رزقه ومحور شهرته لاعتقاده شرف غايته وسلامة صنيعه من شبهة المشتبهين

فاذا نوقش فى محادثة واتفق ان اخذته الحدة علا صوته فاسمعك هدرات الماء الصاق بحصباء العقيق فاذا دفعته فى بحث مما هو عارف به فاندفع اشبع واروى ولم يدع فى النفس حاجة

أما آدابه فمما راعنى منها انه وازنها وهياها بحيث ترضى الامير وتقرب الصديق وتعجب الغريب من غير تكلف حركة خصيصة لموقف من المواقف . وعلى هذا كان يعرض لى ان اقول ان فى زيدان جمودا من جهة الملاقاة لا احب عليه ليونة غيره مهما رقت وراقت

كان لا يلقى الا باشا ، وانما كانت بشاشته تلك اشف ظواهره البسيطة الرائعة من عفته المطوية وشممه الخفى : ذلك أنه اختط خطتين : خطة عين لنفسه منتهاها عن طريق العقل • وخطة رسم لنفسه صراطها من جانب الخلق

الكساء والطعام والرياش اغراض فى نظره لايعتد بها ؛ ومن الاعتدال فيها كان يدخر ما يصون ماء وجهه ، فأيما حاله صار من النعمة نهض الى مستواها ولكن مع ترك فضل للدخل على الخرج ، فبذلك الحطام اليسير المتبقى بين يديه كان يتقى ضياع وقته ويصون مادة عفته وجوهر شممه • ومن ذلك الزائد الزهيد كان يقتنى تلك البشاشة

الدائمة التى لا يحولها اغبرار الحوادث ، ولاتشوبها كدورة الايام ولا يتخللها اصفرار الطلب .. »

والحق أن هذه الصورة التى رسمها « خليل مطران » بالغة الخطورة فى تصوير شخصية هذا الرجل العظيم • انها تعطينا لمحة من روحه المتصوفة ، ونفسه الزاهدة المنصرفة عن الزخرف والترف ، متعاليا بهذا العفاف عن التماس الوقوف على باب عظيم أو منافقة كبير وهى شمال من شمائل السمو عزت فى الرجال ، وكانت غريبة أشد الغرابة بالنسبة للعاملين فى الصحافة والادب فى هذا الوقت الباكر الذى كان فيه الادباء والصحفيون يعيشون على صداقات الامراء والاعيان • وكانت الاقلام عالة على بعض الجهات

هذا الشمم وهذا الكبرياء النفسى القائم على العفة والخلق والتسامى عن الماديات ، يعطى صورة باهرة لهذا الرجل الذى آمن بقلمه ورسالته ، وتحرر من أن يكون أجيرا أو صنيعة لأحد أو جهة

***

وهكذا ترسم هذه الاقلام التى عاشرت جرجى زيدان وعرفته ، صورة واضحة تعد امتدادا طبيعيا لصورة شباب جرجى زيدان • وهى فى مجموعها صورة شخصية انسان كبير على الصغائر والمطامع والاهواء • متواضع للناس • حريص على السلامة ، عازف عن الخصومة • طبعه كالغدير الرقراق • وقلمه يقطر الحكمة • ونفسه فيها صفاء الدعاة والزهاد . وهو بعد هذا عبقرى العقل . فيه جلد العلماء . وصبرهم على البحث والمراجعة والاستقصاء • ومن هذه البساطة والعزوف والجلد بنى ذلك الهرم الضخم من المؤلفات والآثار

اسلوبه ومذهبه الادبى

تعطى مؤلفات جرجي زيدان وسجله الخالد «الهلال» صورة متكاملة واضحة المعالم لمذهبه الادبى .. تعطى صورة « المعلم » الذى يتخذ من أدواته الثلاث : « الصحافة » — « التاريخ » — « الادب » ، وسائل الى غايته . غايته الكبرى التى هى التثقيف والتعليم وتكوين جيل واع فاهم متعمق

وقد كان من الطبيعى للرجل الذى نصب نفسه لهذه المهمة ، أن يتخذ لها عدتها من المراجعة ، والبحث والمقارنة المستفيضة ، لاستخلاص الروايات الصحيحة المجمع عليها . يبدو هذا واضحا بالمقارنة بين مؤلفاته وبين التاليف فى تاريخ الادب العربى والتاريخ الاسلامى قبله

فقد أدخل الى هذه الدراسات عنصر التحقيق العلمى . وعنصر البحث الخالص المجرد من عاطفة الهوى والحب والمغالاة لتاريخنا الاسلامى وأدبنا وتراثنا . هذه المغالاة التى كانت تفرض علينا « تقديس » تاريخنا وآثارنا وتحول بيننا وبين الكشف عن أوجه الضعف وأوجه القوة

وكان ذلك هو مذهب جرجي زيدان الادبى . انه الرجل الذى استطاع أن يقتحم هذا الحائط الضخم دون أن يخشى حملات الرجعيين والتقليديين عليه . فلما هبت عليه الحملة واجهها باسما عف القلم واللسان ، لم يسرف فى الرد أو الجدل . ولم يذهب مذهب ناقديه فى الهجاء أو الاقذاع . بل كان عف القلم . متماسك الاعصاب . حريصا على طابع العلماء الذين يعرفون هدفهم ، ويعرفون حق قلمهم وشرف رسالتهم

ولقد أحب جرجي زيدان « النقد » وأفاد منه ورفعه فوق التقريظ درجات . وصمد فى ميدان النقد صمودا قويا . فيه ايمانه بحقه . وفيه ثقته بأن الزمن كفيل بأن ينصفه . وقد بلغ فى ذلك أقصى ماكان يريد . فقد تبخرت الانتقادات التى وجهت اليه وذهبت جفاء كما

يذهب الزبد ويبقى هو : يقى عمله الادبى قويا حيا ..

وقد صــور هــذه المعــانى ق مقدمة كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ..

« .. لاجدال فى أن الانتقاد أكثر فائدة من التقريظ . وقد يتبادر الى الاذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها • أو يذهب بفضــل أصحابها وهو خلاف الواقع • واذا رأينا له مثل هذا التأثير أحيانا فلأن الكتاب المنتقد لم يكن يستحق عنـاية المنتقدين ، ولو ترك بلا انتقاد لـكان أسرع الى السـقوط ، أما الكتب الهامة فانهــا تزداد بالانتقاد شيوعا ورواجا ويزداد أصحابها رسوخا فى عالم الشهرة • فالانتقادمفيد للكتابوصاحبه وقارئه . ولذلك رايتكبارالمؤلفينفىاوربا اذا ظهر لاحدهم كتاب لم ينتقده الادباء عدوا ذلك أهانة له »

وعندما عرض جرجيزيدان لدراسةتاريخ الاسلام وجد خصومة من المسلمين والمسيحيين على السـواء ، لم يرض أحدامنهم ولكنهكان يؤمن بهدفه ويعرف طريقه ولذلك صم أذنيه عن النقد مادام ليس موضوعيا ومضى ف عمله الى النهاية

« تصدينا للكتابة فى تاريخ الاسلام والقراء لميتعودوه والمسلمون معجبون بتاريخهم وغير المسلمين لايعرفون عنالاسلام الا ماوصلهم عن مطاعن الاجيال المظلمة فكان حظنا من المؤاخذة مضاعفا . غضب بعض المسيحيين لاننا على زعمهم بالغنا فى ذكر فضائلالاسلام حتى اتهمنا بعضهم بالمروق من النصرانية

وقال بعض المسلمين اننا قصرنا فى ذكر فضائل الاسلام . ولم يزدنا هذا الا ثباتا ونشاطا لاعتقادنا اننا على هدى فالفنــا منها على أساليب احرزت اقبال العامة ورضا الخاصة فطبعت مؤلفاتنا مثنى وثلاث ورباع ونقلت الىمعظم اللغاتالشرقية . واهم اللغاتالافرنجية فترجم بعضها أوكلها الى الفارسية والهندستانية والتركية العثمانية والتركية الازربيجانية واللغةالفرنسية والانجليزية والبرتغالية عدا الترجمات التى لم تنشر بعد فى الروسية والالمانية

.. لا نقول هذا للتفاخر فاننا ابعدالناسعن التنويهباعمالنا وانما نقوله رغم ارادتنا وتقريرا للحقيقة

ومن الأسف أن من بين منتقدينا من ينتقد للتشفي أو التشهير لمنافسة أو نحوها مما يضعف عزائم المؤلفين . ونعرف عشرات من الكتاب الناشئين لولا خوفهم من الانتقاد الجارح لثابروا على الكتابة فاستفادوا وافادوا . وكثيرا مايفخر المنتقد بما يستخرجه من الخطأ»

ثم يصور جرجي زيدان ما لقيه في ميدان النقد فيقول :

« لانظن كاتبا من كتاب العصر لاقى مالاقيناه من الانتقاد في اثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضع وعشرين سنة . وكنا اول امرنا نعنى بالانتقادات ونرد عليها ونبين التحامل كما فعلنا في « رد رنان على نبش الهذيان » ورددنا في المؤيد على انتقاد الجزء الاول من التمدن الاسلامي ولم يكن يصح من الاغلاط التي يحاسبوننا عليها واحد من العشرة او العشرين . ثم تكاثرت واجباتنا وضاق وقتنا فعزمنا على السكوت والاقتصار على النظر في الانتقاد فاذا وجدنا فيه اصلاحا حقيقيا ادخلناه واغضينا عن سواه بلامناقشة لان الاخذ والرد في هذه الحالة لا ياتي بثمرة لتمسك المنتقد برايه والدفاع عنه بكل جوارحه . فالاولى من قضاء الوقت في الجدال نقضيه في التاليف المفيد فجعلنا جوابنا على الانتقاد المثابرة على العمل في خدمة تاريخ الاسلام وآداب اللغة »

وقد اشار جرجي زيدان الى انه من الخطأ ان يحكم الكاتب بتخطئة مخالفه في الراى ، وقد يكون لمخالفه وجه آخر ، وانه نظر في المسألة من جهة اخرى

كما انه حرص على الاستفادة بما وجه اليه من نقد وقد سجل ذلك في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب التمدن الاسلامي «ونظرنا في ماوصل الينا من انتقادات المنتقدين اوملاحظات الملاحظين مما تنشر في الصحف والكتب اوجاءنا في الكتب الخصوصية وتدبرناها كلها باخلاص وروية فاصلحنا ماصح عندنا واغفلنا الباقي وهو الاكثر وانما توهم المنتقدون خطأ لانهم نظروا فيه من وجه غير الذى نظرنا فيه نحن ، او اننا اطلعنا عليه في مصادر لم يطلعوا عليها فاكتفينا في هذه الحال بذكر المصدر الذى عولنا عليه في ذيل الصفحة (١) »

---

(١) كانت هذه المساجلات الادبية بين جرجي زيدان ونقاده عام ١٩٠٠ وما بعدها

وكان مذهب جرجي زيدان الادبي يقتضيه ان يكتب في اسلوب بسيط سهل ، يصل الى جميع العقول والقلوب والاذهان دون عناء ويحتفظ في نفس الوقت بتماسكه اللغوي، ومستواه العلمي ، فهو يكره البلاغة المعقدة ، والتقعر اللفظي ، والاغراب في البيان

وهذا ميدان آخر من ميادين العمل الادبي الذي اقتحمه جرجي زيدان وبلغ فيه غاية المدى ، فهو الذي ابتكر في الادب الحديث « الاسلوب التلغرافي » القصير الواضح السليم الذي يؤدي المعنى باقل عدد من الالفاظ

وهو يصور هذا المعنى فيقول : «ان الابحاث الادبية تفتقر في تأديتها الى اعمال الفكر من حيث ترتيبها وسبكها في عبارة سهلة سالمة من الركاكة والتعقيد وهذا في نظرنا هو الاسلوب العصري الذي يجب على كل كاتب ان يحتذيه ، وهو شائع اليوم على اقلام الكتاب لايشذ عليه الا المتفانون في المحافظة على القديم الذين يحسبون اللغة وقفا لايحل بيعه او التصرف فيه وفاتهم انها من قبل الاحياء الخاضعة لناموس الارتقاء يتغير بتغير احوال الاجتماع من البداوة او الحضارة . فتنمو بتولد الالفاظ الجديدة للمعاني الجديدة والتراكيب العصرية للافكار العصرية . وتذهب الالفاظ القديمة بذهاب معانيها كالاعضاء المهملة في الجسم الحي تقضي الطبيعة بانقراضها ليقوم سواها مقامها . او هي كالخلايا التي تندثر بالعمل الحيوي فتخلفها الخلايا الجديدة النامية فالتعبير الذي يصيب الالفاظ والاساليب باختلاف الاعصر دليل على احياء اللغة . ومن وقف في سبيل هذا التفكير فقد عارض الطبيعة .. »

فاذا مضينا ندرس مدى فهمه للتاليف وجدنا مذهبه واضحا صريحا يكشف عنه في كلمات قليلة « خدمة الامة وارشادها » . فلهذا الهدف عمل ومن اجله اقذى عينيه تحت اضواء المصابيح الليالي الطويلة ليخرج هذه الآثار التي ما تزال تقف كالمنارات بعد اكثر من اربعين عاما لتهدي كل باحث في ميدانها وهو يفهم رسالة الكاتب فهما دقيقا عميقا :

يقول « من تصدى للكتابة والتاليف فقد جعل نفسه خادما للمصلحة العامة الا من يحصر كتابته في شئون خصوصية او يعالج علما يلذ له ولا يهمه سواه او يتعاطى الكتابة لاغراض معينة او يكون

مرماه من التاليف بيان قدرته على الانشاء والغوص على المعانى العويصة والالفاظ العربية بتقليد الاساليب القديمة التماسا لاعجاب العلماء مما يشق فهمه على جمهور القراء فهؤلاء وامثالهم يكتبون لانفسهم او لطبقة خاصة لغرض خاص ولهم منزلة وفضل ولكن فى غير الخدمة العامة . واذا لم يصادفوا اقبالا من الجمهور اتهموه بالجهل وهددوه بالاعراض والتقاعد عن الكتابة . مع انه لم يشعر بوجودهم لانهم لم يخاطبوه بلسانه . اما الكاتب العمومى فانه خادم الامة وولى ارشادها . وعليه ان يبذل الجهد فى سبيل مصلحتها ولا بد له فى تاليفه من ثلاثة شروط

١ ـــ اختيار الموضوع الذى يرى الامة فى حاجة اليه

٢ ـــ ان يسبكه فى قالب يسهل تناوله

٣ ـــ ان يتوخى صدق اللهجة والصراحة بلا انحياز الى طائفة او حزب

والكتاب يتفاوتون قدرة على القيام باحد هذه الشروط او كلها بتفاوت احكامهم على النافع والضار من المواضيع وتباين قدرتهم على ايضاح افكارهم . ويصعب ذلك على الخصوص فى المواضيع الادبية كالتاريخ والاجتماع والاخلاق ونحوها .. »

ويرى جرجى زيدان « ان صدق اللهجة والصراحة فى القول والخلو من الغرض » هى اهم واجبات الكاتب ... « لكنها من اصعب الشروط عليه اذ لا يسهل على الانسان ان يجرد نفسه من الروابط الدينية والاجتماعية التى تتجاذبه . وقد رضعهما مع اللبن وتمكنت من خاطره بتوالى الاعوام . وانما يقوى على مغالبتها قوى الارادة عالى التربية . وقد يتطرف المتعصب لامته او طائفته حتى لا يرى الحسنات الا فيها ولا يرى فى سواها غير السيئات ولذلك فهو لا يفيد فى الخدمة العامة وقد يضر ... »

❊❊❊

والكتابة عند جرجى زيدان لها شروط وقواعد . وهى ملكة وليست حرفة ولكل لون منها لغة ومنهاج . وهو فى هذا معتدل الراى يرى ضرورة الاخذ باللسان العربى وتجنب التعبيرات الافرنجية

يقول « على من يعمد الى التاليف ان يحافظ على ملكة اللسان العربى ويتجنب التعبيرات الافرنجية . ولا يتم ذلك الا بمطالعة

الكتب العربية الخالية من شوائب العجمة . بل لا بد له من مطالعة الكتب التى كتبها العرب فى الموضوع الذى يريد الكتابة فيه وما يقرب منه لاقتباس طرق التعبير فى ذلك العلم . اذ لكل علم عبارات والفاظ لا يستحسن ايرادها فى علم آخر . فلغة العلوم الطبيعية مثلا غير لغة الموضوعات الادبية ولغة التاريخ غير لغة الطب ولغة الكتابة غير لغة الخطابة

والكتابة فى امتقادنا ملكة غريزية كملكة الشعر . فالشاعر المطبوع تظهر شاعريته ولو لم يعرف العروض . وكذلك الكاتب المطبوع لأن المعنى صورة من صور الذهن والكتابة رسم تلك الصور على الورق . والمعانى تخطر لعامةالناس كماتخطر لعلمائهم على تفاوت بينهم . وكل منهم يعبر عن معانيه اما تكلما او كتابة على اسلوب خاص به

والمعانى ترجع فى وضوحها وابهامها الى حالة صورتها فى ذهن الكاتب فاذا كانت الصورة واضحة فى ذهنه ظهر ظلها واضحا فى كتابته او كلامه ، واذا كانت مشوشة ظهر لك تشوشها فى خلال سطوره . . »

وهو يرى ضرورة ترتيب اجزاء الموضوع وتنسيق العبارات بتناسق المعانى مع السهولة والوضوح « وهى ملكة غريزية لا تكتسب بالمزاولة او الصناعة . ولكل كاتب اسلوب خاص به يمثل سلسلة افكاره يعبر عنه بالذوق فالكاتب يمتاز بذوقه ويعرف به »

***

ويصور جرجى زيدان صناعة القلم فى احد اعداد السنة الحادية عشرة (١٩٠٣) من الهلال — بأنها اكثر المهن العلمية حاجة الى « التدبير » لانها تتعلق بشعور الناس . وتمس حاجاتهم الادبية واعتقاداتهم الاجتماعية — لاسيما فى الشرق لاختلاف المشارب والمذاهب والاذواق والاخلاق

وهو يرى أن الكاتب الشرقى « قبل أن يتناول القلم يرى العقبات تتوالى امامه ومهما يكن من تفاهة موضوعه او اهميته

لا يدرى ما يكون تاثير اقواله على قرائه . فاذا ارضى المسلم لا يرضى المسيحى واذا ارضى المصرى لا يرضى السورى او العراقى . واذا ارضى النشء المتعلم اغضب المحافظين على القديم واذا ارضى هؤلاء جميعا لا يرضى نفسه لأنه لا يطلق لقلمه الحرية اللازمة لكاتب فى الاجتماعيات

ويضطر — أى الكاتب الشرقى — لتقرير الحقيقة الاجتماعية او التهذيبية التى يقولها الكاتب الافرنجى بصراحة دون‌ان يحتاط لما قد يقيمه المتعنتون من الاعتراضات التى لا طائل تحتها لكنها تؤثر فى نفوس القراء

واول واجب على الكاتب اذا اراد ان يكون لكلامه تاثير فى قرائه ان يغرس فى قلوبهم حسن الظن به فاذا ساء ظنهم فيه ذهب تعبه سدى . فالكاتب العربى لا يقدر ان يفيد قراءه ويستفيد هو من مهنته الا اذا احسن التدبير ، لا يكفيه ان يكون عالما فى موضوعه بل لابد من « التدبير » فيما يكتبه تجنبا لسوء الظن فيه . فيجب ان‌يكون على بينة من‌حاجات قرائه واخلاقهم وان يحسن‌سبك آرائه بما يرضيهم ويفيدهم وهذا لا يكون الا بالتدبير . والتدبير اللازم للكتابة يختلف مقداره باختلاف البحوث . وتزيد الحاجة الى التدبير كلما تعددت الكتب وتفرعت البحوث . . »

ومن كل عبارة وكلمة من هذه الكلمات تحس بالتجربة والخبرة والمسئولية التى يفهمها جرجى زيدان حق الفهم ويقدرها كل التقدير وهو يواجه قراءه بآثاره ومؤلفاته واعداد مجلته « الهلال »

ومذهب جرجى زيدان الادبى من خلال هذه المعانى كلها واضح صريح : هو تحطيم السدود والقيود التقليدية التى‌تقف فى وجه الفكر العربى والاسلامى سواء من ناحية اسلوب البحث او اسلوب التعبير بحيث يكون سهلا يسيرا من ناحية عميقا رصينا من ناحية اخرى

واوضح اهداف مذهب جرجى زيدان الادبى هو احترام القارىء وتقديره والاخلاص له فى كشف الجوانب الخفية عنه فى عالم الفكر

والبحث وقد كان لهذا الاتجاه اثره فى نفوس القراء فقد حظى جرجى زيدان بالتقدير والحب والثقة من قرائه فى مختلف نواحى العـالم الاسلامى الواسع

ولا شك ان جرجى زيدان قد احتمل متاعب شق الطريق وحمل الانقاض امام الجيل الذى جاء من بعده والذى اطلق عليه « جيـل الرواد » فقد عمل بقلمه فى سبيل تحرير الفكر من قيود التقليـد التى كانت مفروضة عليه فى القرن الماضى وفى سبيل تحرير الاسلوب من قيود الزخرف والصناعة وبذلك استطاع هيكل وطه حسـين والمازنى والعقاد وتوفيـق الحكيم وسـلامه موسى ومحمود عزمى واحمد امين ان يسيروا فى الطريق الممهد الذى جاهد فى امداده جرجى زيدان وواجه فى سبيله حملات عنيفة من خصومه ، واجهها بثبات وايمان وكبرياء وشجاعة باهرة . .

تجربته وخبرته

لعل من أبلغ الاسباب التى أدت الى نجاح جرجي زيدان فى عمله الفكرى والادبي وفوزه بهذا الجاه العريض من التقدير فى نظر معاصريه ومؤرخيه على السواء هو « عمق التجربة » التى مر بها والخبرة التى حصل عليها وقدرته على الافادة منها

فقد مر جرجي زيدان بعديد من التجارب البعيدة المدى ، لا أعتقد أن كاتبا أتيحت له على هذه الصورة فقد اشتغل بالعمل فى المحيط العام حيث صادف فنونا من الناس وصورا من الاخلاق والطباع . ثم اذا هو يذهب فى أكثر من رحلة وسفر ميمما شطر مصر والسودان ثم أوربا . وهو قد تعلم عديدا من اللغات ، وعمل مدرسا وصحفيا فى الصحف اليومية وأدار المقتطف . وفى خلال عمله فى الهلال اتصل بالناس أيضا واصطدم بعدد من العاملين معه فى مهنته . كل هذا أعطى جرجي زيدان خبرته ورصانته وتجربته

ولذلك فان الذين التقوا به وعاشروه قد شهدوه وهو فى ذروة نضجه نتيجة للخبرة الطويلة، وللطبيعة النفسية القادرة على الافادة من كل تجربة . يقول سامي الجريديني « اذكره رجلا على حد قول شكسبير — من قمة رأسه لأخمص قدمه — حرر الهلال عشرين سنة ونيفا، فكان فى أول سنة من سني الهلال يقف الى مكتبه وقوفا يحرر فصلا أدبيا أو اجتماعيا . ويترجم رجلا مشهورا أو يؤلف رواية تاريخية . ثم يراقب الطبع والتصحيح . دائبا على العمل نهارا وليلا . ثم توفى . وكان قبيل الوفاة يضع دقائق واقفا وقفته لم يقلل ساعات العمل ولم يتضجر أو يتأفف يوما من كثرته . والرجل منا اذا كتب مقالا ملأ الارض والسماء من الشكوى من العمل ومن التعب واجهاد الفكر . بل قليل منا من يبدأ عمله ويثابر على اتمامه أو يشرع فى أمر وتظل همته تلازمه حتى انهائه .. ما أساء الى أحد قط . كان ينتقده الحاسدون . حمل عليه الجهلة المتعصبون فاذا ما رأيته رأيت منه صدرا واسعا . ووجها باشا غير متكلف أو متصنع . يسكت عن

الاساءة ويمر بها مرا كريما ويأخذ الحسنة فيشكر عليها ... »

هذه صفة زيدان وطابعه النفسى : « مثابرة على العمل حتى اللحظة الاخيرة ، فى سرور ونشاط . القيام بالواجب وتحمل النقد بمحيا طلق وصدر رحب . الاغضاء عن الاساءة . لين العريكة » مامن كاتب تحدث عنه الا وأورد هذه الصفات . فاذا أضفت اليها مظهره الذى تراه فى صوره . مظهر السماحة والبساطة ، وأضفت الى ذلك جسدا قويا عارما قادرا على تحمل المشاق . وروحا دؤوبا متطلعا الى المجد والعلا . صبورا على البحث والدرس .. وقلبا مضيئا متصوفا زاهدا لم تفزعه الاوهام أو الاهواء أو الصبوات وجدت أمامك كائنا حيا هو : جرجى زيدان

ووصفه عباس العقاد عندما التقى به « .. رأيت جرجى زيدان فيما أذكر مرات معدودات . احداها فى مكتبة الهلال وأنا فى السادسة عشرة وكنت ذاهبا من قنا الى الزقازيق لأتسلم وظيفتى الاولى فى دواوين الحكومة . وقيل لى من قبل ان مكتبة الهلال على مقربة من محطة السكة الحديد ، وقد قضيت الوقت مابين قطارين فى زيارة تلك المكتبة . والتزود بما طاب لى من المصنفات وأنا عامر الجيب بعض العمار . وسألت البائع أعندك مصنف فى علم الجمال فحار صاحبنا واتجه الى رجل كان يجلس على كرسى صغير فى مدخل المكتبة ومعه شيخ يحدثه فى أسلوب السيد البكرى والرجل يقول له انه قد رجع بالكتابة العربية مئات السنين

أما الشيخ فقد رأيته فيما بعد فعلمت أنه هو الشيخ أبو بكر مصطفى المنفلوطى الاديب الصحفى المعروف . وأما الرجل الذى سأله البائع عن مصنف علم الجمال فقد علمت أنه هو « صاحب الهلال » وقد سمعت منه أن هذا العلم ليس له بالعربية مصنفات

ومرة أخرى زرته فى بيته بين الفجالة والظاهر وأنا مشغول بقراءة شوبنهور لأسأله رأيه فى أصح النظريتين الى حقائق الحياة . نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين

فقال لى ماخلاصته ان كلتا النظريتين لاتتميزان بالصحة والبطلان . ولكنهما يتميزان بالميل والمزاج . وقد يرى الانسان شيئا واحدا فى حالتين مختلفتين فاذا هو داع الى الرجاء فى حالة وداع الى القنوط

في الحالة الاخرى • وكل منهمــا لا يخلو من بعض الخطـأ أو بعض الصواب »

ويصف العقاد نفسية زيدان فيقول « رجل ليست طبيعة تفكيره التحيز والتوثب والازعاج • وانما طبيعة تفكيره التوجيــه فى رفق وسكون فهل قلت هدايته من جراء ذاك • كلا ! بل لعلهــا زادت • وان كان هو لم يكسب من الضجة والسطوع ما كان يكسب لو كان من أصحاب النزعات والعصبيات »

ومن الذين عاشروه عن قرب ولمسوا شمائله أحمد حافظ عوض ، صاحب كوكب الشرق ••

« عرفت منشيء الهلال طيب الله ثراه بالاسم • وأنا بادىء حياتى الادبية كثير الشغف كالناشــئين بالاطلاع على القصص التاريخيــة والخياليــة فكان أول اتصــالى الادبى والروحانى به رواية « المملوك الشارد » ثم لازلت وعود الشباب غض طرى وعقــل الفتــوة وثاب وخيالى خال من متاعب الحياة ومشاكل الوجود أتابع تلاوة رواياته ومنشئاته اتلذذ بها واتغذى منهاواطير معها واصفق لهاحتى اشتغلت بالصحافة فتعارفنا وتصادقنا ودامت بيننا عشرة طويلة لم يؤثر فى صفائها انتقاد أدبى ولا رسائل من هذا القبيل ظهرت من آن لآخر فى جريدتى المؤيد والمنبر لأنه كان كجميع العلمــاء العــاملين رحب الصدر محبا للتمحيص والنقد • ولقد وجدت من هــذه الاخــلاق الفاضلة ومن تلك النفس الودود الطيبة ما حببه الى .. »

وهذه صورة أخرى يرسمها خليل مطران

« ما عرفت فيه الا الصدق مهما تعظم تكاليفه • والوفاء مهمايحل دونه من الصعاب • والبر يذوى رحمه الى نهاية ما يقتضيه النصح والسخاء والنجدة للاصدقاء • حتى يكونون منه كأدنى قرابته اليــه وســماحة النظرة فى معاملة الناس • لا يألوهم ارشــادا ويلتمس المعاذير لمخطئيهم ويغتفر الزلات للمسيئين اليه منهم

وكان الى ذلك محتشما مهذبا عف اللسان وديعا لا يأخذه الزهو حيث يزهى أرصن أولى الالباب وأبصرهم بكنه الامور

أما الفضائل التى اتصف بها فيما تصدى له من الخــدمة العامة

فأعلاها الابتكار يؤيده فيـه ذكاء متوقد وجلد غـير منقطع عن الكد والكدح · وصبر على المكاره لا تقوى عليه الا القلوب الكبيرة وزهـد فى المباهج والاباطيل وتوطين للنفس على أن السعادة كل السـعادة انما هى فى العمل ·· »

ويقول عبد العزيز البشرى « ان كل ما كان حوله من اول نشأته وما اعترضه فى طريقه كان يهيئه لأن يكون فى الحياة شيئا ، لو أن العدم يحتاج الى دواع وأسباب . ثم اذا هو برغم ذلك رجـل عظيم جليل

كان فيه نبوغ·ولكنه العزم·العزم الجبار الذى يأبىأنينتزع لهذا النبوغ حقه من لهوات الايام · ان حيـاته نفسها أعظـم وأضخم · ما أبلغها درسا لمن فاتتهم العظمة لتخلف الهمم ..

ومما لا يطوف به الشك أنك اذ تطالع سيرة هـذا الرجل ولو فى ايجاز لا تستطيع أن تملك عن نفسك ما ينازعها من روعة واعجاب وعجب لا تدرى لأيهـا تكون السطوة عليك ولأيها يكون على صاحبه القلب ·· »

وهكذا تعطى التجربة جرجى زيدان سر النجاح · وتمنحه الظفر بالمكان الذى وصل اليه

يقول أحمد أمين فى صورة رسمها له تفيض بالصدق :

« عصامى كون نفسه · وحمل عبئه·ورسم له مثلا أعلى آمن به· ووضع الخطط المحكمة له ولم يهدأ حتى وصل اليه · يريد أن يتعلم ولا يجـد المال فيخضع الزمن لارادته ويوفق بين مطلبه فى العـلم ومطلبه فى المال

·· يعمل مدرسا فى المدرسـة العبيدية ثم يتركها ليـدير مجلة المقتطف عامين · ثم يخرج من كل ذلك وفى ذهنه صـورة كاملة لما يريد أن يعمله مسترشدا بتجاربه فى الحياة وتجاربه فى الاسـفار وتجاربه فيما زاول من أعمال مهتديا بما تجلى له من ملكاته وتفاعلها مع ظروفه الخارجية

·· كانت خطته أن يهب نفسه للعلم كما يهب العابد نفسه للدير

ويخدم العلم من طرقه المختلفة · ينشىء مجلة الهلال ويديرها ويحررها مع عدد من الكتاب · ويعطى لذلك جزءا من زمنه · أما الزمن الآخر فللدراسة والتأليف فى اللغة · فى التاريخ · فى الادب· وليحسب حساب المال كما يحسب حساب العلم . فقد تصدى لمهمة شاقة ، وهى أن يكون مؤلفا وناشرا وعالما وتاجرا . منتجا فى العلم والادب · وموزعا للانتاج وهى مهمة حاولها كثيرون ففشلوا بل حاولتها حكومات ففشلت · أما هو فقد نجح فيها بجهده ويقظته ودقة حسابه واستقامته ·· وظل يعمل لهذه الخطة بضعة وعشرين عاما من غير انقطاع · وتعترضه الصعوبات الجمة فيحاول علاجها على الطريقة التى تعلمها فى الطب من تشخيص للمرض ومعرفة السبب ووصف العلاج ·· »

ولا شك أن ملاحظة أحمد أمين بشأن أثر دراسة الطب فى أدب جرجى زيدان صادقة وعميقة ولعلى لو أضفت اليها أنه تعلم«الدوبيا» أيضا وهى فن الحساب ومسك الدفاتر وقد كان لها أثرها البعيد فى عمله فى الهلال

ويصور انطون الجميل لقاء له مع جرجى زيدان كان له أثره فى اتجاهه الادبى :

« مازلت أذكر ما كان لمنشىء الهلال من الفضل يوما ما على نشأتى الادبية · كنا قبيل الحرب الماضية وكان جيلنا من شبان تلك الحقبة يتطلع الى النهضة الفكرية فى الشرق ويتلمس آثارها فى كتابات من كان فى الطليعة من أدبائنا

كان رحمه الله يقصد عند مغرب كل يوم الى مكتبة الهلال فى أول شارع الفجالة حيث يلتف حوله عصبة من رجال القلم يتفكهون ويتنادرون وقدمت له ذات يوم مقالا عن ديوان الخليل فلما قرأه قال لى أبشرك بمستقبل حسن فى الادب اذا ثابرت على البحث والكتابة· وفى الشهر التالى قرأت بحثى منشورا فى الهلال وتفضل رحمات الله عليه بأن أهدى الى المجلة على سبيل المكافأة · ولا شك أن هذا الحافز كان من الحوافز التى دفعتنى الى الكتابة فى المستقبل ·· »

من مجموعة هذه الصور نرى نفسية « جرجي زيدان » واضحة المعالم وقد تكاملت عناصرها ونضجت خبرتها • وحققت أبعد مدى من النجاح • ولعل هذه اللمحات تعطى لشبابنا حقيقة أكيدة هى أن الافادة من التجربة والحرص على كسب الخبرة يؤلفان طاقة ضخمة من القوة الروحية والصلابة الذاتية التى تكون عنصرا فعالا فى الظفر بتحقيق الهدف المرسوم

أدبه

- المؤرخ
- الأديب
- الصحفى
- الروائى

المؤرخ

« التاريخ » هو فنه الأصيل الذى بلغ فيه الذروة . واحدث فيه تجديدا واضحا . وهو محور عمله كله « تاريخ آداب اللغة العربية . تاريخ التمدن الاسلامى . تاريخ العرب قبل الاسلام . تاريخ مصر الحديث . تاريخ مشاهير الشرق . تاريخ اللغة العربية . انساب العرب القدماء » ولقد بلغ جرجى زيدان فى عمله هذا مبلغا خطيرا . وادى به للثقافة يدا بالغة فكانت فى مجموعها بعيدة الأثر فى كل عمل تاريخى تلاها . وكانت بداية نهضة فكرية تاريخية ظهرت فى عديد من الآثار الفكرية فى مقدمتها مؤلفات احمد امين وحسن ابراهيم حسن ، ومحمد عبد الله عنان ، وغيرهم

فاذا ذهبنا نستقصى هذه المجلدات الضخمة وجدنا فيها علما خالصا فيه الجهد المبذول والمراجعة العميقة والمقارنة الدقيقة . آلاف الصفحات عن عالم مجهول لم يرتده من قبل الا رواد قليلون جانبيون ، رسموا زوايا مختلفة من هنا وهناك . ولكن عملا متصلا كاملا دقيقا ، لم يكن معروفا قبل جرجى زيدان

وكان لجرجى زيدان خطة واضحة فى دراسته : هى تشريح هذا التاريخ تشريحا مجردا من مظاهر القداسة على اساس الاسلوب العلمى الخالص ، وقد حشد له كل امكانياته من المراجع العديدة التى احضرها من امهات المكتبات فى اوربا باللغات المختلفة وذلك بجانب المؤلفات العربية القديمة التى استوعبها جميعا

وقد صور جرجى زيدان ماتحمله من متاعب فى سبيل تحقيق غايته التاريخية فقال :

« نشطنا فى المثابرة على التنقيب والبحث لاستطلاع دخائل التمدن الاسلامى وكشف اسراره بما يبلغ اليه الامكان على اسلوب لم يطرقه كتاب العرب ، نتوخى فيه ارجاع الحوادث الى اسبابها وبيان ارتباطها

بعضها ببعض مع تطبيقها على احكام العقـل ونواميس العمران . فنطالع كتب التاريخ والادب وغيرها على سذاجة اسلوبها في سرد الحوادث وايراد الوقائع ونتدبر ما نقراه ثم نستخرج منـه فلسفة ذلك التمـدن العجيب كما نستخرج السكر من الخروب . لان مؤرخي الاسلام مع ما بذلوه من الجهد في تحقيق الحوادث وتمحيص اسانيدها ومصادرها قلما نظروا في علاقاتها او عللوا اسبابها وانما نقلوها على علاتها وخصوصا مايتعلق منها بسلامة الدولة وكيفية انتقال الملك من عائلة الى عائلة او امة الى امة او طائفة الى طائفة . لأن تعليل تلك الحوادث يبعث احيـانا على الطعن في اقوال بعض الخلفاء او تخطئة بعض المذاهب ، وهم يتحاشون ذلك احتراما للدين ورجاله »

ولقد امضى جرجي زيدان وقتـا طويلا يراجع ويبحث ويهيىء نفسه لهذا العمل فلم يقدم عليه الا بعد ان استكمل ادواته ، يقول :

« علقنا بدرس هذا التاريخ منذ اعوام وكنـا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء الهلال ونعلق مايبدو لنا من حقـائقه على امل التفرغ لتاليف تاريخ مطول فيه وقد اعلنا عزمنا على ذلك غير مرة . ثم اخذنا نهيىء اذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ بماننشره من الروايات التـاريخية الاسلامية تباعا في الهلال . ذلك لان مطالعة التاريخ الصرف يثقل على جمهور القراء خصوصا في بلادنا – والعلم لايزال عندنا في دور الطفولة – فلابد لنا من الاحتيال في نشر العلم بيننـا بما يرغب في القراءة والروايات افضل وسيلة لهذه الغاية . .

اما الآن فليس ما يمنعنا من الخوض في هذا العباب فقد حاول غير واحد من علماء الشرق من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه هذا « التمدن » فلم يجدوا في كتب القوم مايشفي غليلا لتشتت هذه الحقائق وتبعثرها . ولذلك لما اعلنا عن عزمنا على تاليف هـذا الكتاب كتب الينا جماعة يستغربون اقدامنا على ركوب هـذا المركب الخشن . وقد زاد عدد ماطالعناه من الكتب العربية والافرنجيـة على مائتي مجلد ، عدا ماراجعناه من القواميس العامة والموسوعات

على اختلاف اللغات والموضوعات .. »

هذا ماذكره جرجي زيدان في مقدمة كتاب تاريخالتمدن الاسلامي وهو يعطي صورة واضحة للهدف الذى كان يرمي اليه وهو نشر الثقافة التاريخية بوسائل مختلفة وقد دفعه هذا الحرص على ان يبدأ بنشر رواياته التاريخية ليقرب هذا الهدف الى نفوس القراء في نفس الوقت الذى استوعب فيـــه عددا ضـخما من المجلدات التاريخية بمختلف اللغات

والحق ان « التمدن الاسلامي » هو لون جديد من الدراســـة التاريخية لم يسبق اليه جرجي زيدان في فنون تاريخنا العربي . فقد كانت المعلومات الخاصــــة به نادرة وقليلة ومدفونة في بطون الكتب وكانت في حاجة الى جمعها وعرضها واستيعابها واستكمالها بما كتب عن تاريخنا

وقد عرف له هذا الفضل جميع من أرخوا له وكتبوا عنه

يقول انيس المقدسي :

قام زيدان وتراثنا الادبي مبعثر في بطون الكتب القديمة . وقد تمكن بما وهبه الله من حسن البصيرة واتزان الفكر ومضــاء العزم ان ينظم هذا التراث وان يعبد طريق البحث العلمي فيه

كان تاريخ الأدب العربي قبله وكذلك تاريخ الحضارة الاسلامية كغابة كثيرة الادغال لايعرف السالك فيها كيف يسير فكان عمله الخالد ان يرود تلك الغابة فيشق فيها الطرق ويسهل المسالكويقيم المعالم ويحول تلك المجاهل ارضا عامرة يجوبها محب البحث دون نصب ولا يعرف قيمة هذين الكتابين (تاريخ الادب العربيوتاريخ التمدن الاسلامي) والجهود التي بذلت فيسبيل اخراجهما الا الذين يعنون بهذه الدراسات ويعرفون مشقة الوصولالى المصادرالاولية »

ويقول احمد حسن الزيات :

« كان جرجي زيدان يومئذ قد انفرد في العالم الاســـــلامي كله بالتأليف والكتابة فيما ليس للعرب والمسلمين به علم من تاريخ

العرب والادب والحضارة الاسلامية بالاسلوب الواضح والقصص العجيب والعرض الطريف فكان ما الفه من الكتب فى تاريخ العرب قبل الاسلام وتاريخ اللغة العربية وتاريخ التمدن الاسلامى وتاريخ آداب اللغة العربية . وما انشأه من القصص التاريخية الاسلامية على نحو مافعل ولترسكوت ، هذه الآثار التى كانت فتحا مبينا فى ميدان الثقافة العربية . وقرب الموارد لكل باحث ومهد السبيل لكل كاتب

وكتب الدكتور محمد حسين هيكل فى الجريدة عام ١٩١٢ — ابان حياة جرجى زيدان — يقول : « جرجى زيدان من اكبر كتاب التاريخ فى مصر . بل لا ابالغ اذا قلت انه الرجل الوحيد المتفرغ فى الوقت الحاضر لكتابة التاريخ

وقد كتب جرجى زيدان اكثر من خمسةوعشرين كتابا فى التاريخ . ويظهر حين قراءتها ان غرض المؤلف فيها نشر التاريخ وتعميمه ليعرف الناس الحوادث التى وقعت فى الماضى وانه لا يقصد من مؤلفاته التاريخية الى تاييد فكرة له عن طريق سير العالم كما يفعل بعض الفلاسفة من كتاب التاريخ ولكنه يريد نشر المعرفة .. »

***

لقد كان جرجى زيدان مؤرخا اعطى كل صفات المؤرخ الحقيقى فما هى هذه الصفات

يقول مصطفى لطفى المنفلوطى : « .. كان شريف النفس بعيد الهمة . متجملا بصفات المؤرخ الحقيقى الذى لا يتعصب ولا يتحيز ولا يداهن ولا يجامل ولا يترك لعقيدته الشخصية مجالا للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه ..

كتب وهو المسيحى الارثوذكسى تاريخ الاسلام فى كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذى لا يكتم الحسنة اذا رآها ولايشمت بالسيئة اذا عثر بها وكان فى تسامحه القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ بلسان التاريخ لا بلسان الدين والمثل الاعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع ان يتجرد من عواطفه وميول نفسه وخواطر قلبه امام الامانة للعلم والوفاء بحقه . وقد وقف له فى طريق حياته

كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق المقاطعين فى هذا البلد الذين لا ينطقون ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه . وكمنوا وراء اكمة الدين ليرموه فيصموه . وقالوا انه شوه التاريخ الاسلامى وعبث بحقائقه ولم يسالوه من اين نقل . ولا كيف استند بل سالوه لم لم يكتب كما كتبوا . ولم يستنتج كما استنتجوا كانه لم يكفهم منه ان يروه بينهم مسيحيا متسامحا حتى ارادوا منه ان يكون مسلما متعصبا يكتب التاريخ بلسان الذين كما يكتبون . وينهج فيه كما ينهجون فلم يجدوه حيث ارادوه فرموه بسوء القصد فى عمله وخبث النية فى مذهبه ، ولم يستطيعوا أن يروضوا انفسهم الجامحة على ان يقولوا ان الرجل باحث مستنتج يخطىء مرة ويصيب اخرى او يقولوا أن فى تاريخ الاسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلتغفر هذه لتلك . .

. . ولم يضق الرجل ذرعا بهذا كله . بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم ولا يشتمهم وينبههم الى ادب المناظرة وواجباتهـا ولا يؤنبهم . ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ولا يمكر بهم

لقد وضع بخطته هذه فى مناظرة خصومه ومجادلتهم ، أول حجر فى بناء الاخلاق الفاضلة فى هذه الامة ، فتعلم منه كثير من ادباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون ان يتناظروا ولا يتشاتموا وان يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون ان يريقوا فى معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف واذا تم لهذه الامة فى مستقبل حياتها حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ، ونبالة القصد فى جميع شئونها واغراضها فلتذكر ان جرجى زيدان احد الذين اسسوا فى ارضها هذه الدولة الفاضلة : « دولة الآداب والخلق . . »

وهذه كلمة رجل كان خصمه فى ابان حياته وكان مناظره فى كثير من المساجلات ولكنه يعترف له بالفضل : ذلك هو المؤرخ الاسلامى رفيق العظم

« . . ان من يطالع كتب جرجى زيدان ويطالع كتب المؤرخين

قبله لا يسعه الا الاعتراف بفضله على التاريخ . والاقرار بانه عانى من المشاق فى وضع كتبه هذه ما لم يعانه مؤرخ من قبل . وانه اختط طريقا خاصا للمؤرخين من العرب فى تقسيم التاريخ وترتيبه يشهد بانه كان من خيرة مؤرخى العرب واطولهم باعا فى انتقاء المواضيع الاجتماعية التى لم يسبقه الى التخصص فى مثلها احد من مؤرخينا الاقدمين

... اننى عانيت من تاريخ العرب ما يعانيه المؤرخون . وعرفت من صعوبته ما لم يعرفه الا من عانى ما عانيت من المشقة فى انتقاء الحوادث والاخبار . فلم ار احسن من الاسلوب الذى اتبعه جرجى زيدان . ولا ادق ترتيبا للمواضيع واختيارا للحوادث خصوصا فيما يتعلق بالمدنية الاسلامية فحق على كل مؤرخ ان يعترف بان جرجى زيدان مؤرخ بالمعنى الصحيح . وان له فضلا على التاريخ العربى ببيان ما لم يسبق اليه من آثار المدنية العربية وتاريخها ينبغى ان يذكر له .. »

اما انطون الجميل فيصور جرجى زيدان المؤرخ بقوله :

« عمد الى التاريخ والتاريخ رسول الماضى وعبرة الاتى. فاستطلع دخائله واستجلى غوامضه فلما توفرت لديه مواده . ودانت له اشتاتها عمل على تعميم فوائده بين قراء العربية . وقد جمع المستندات والحوادث من موارد مختلفة ومظان شتى . فصور تلك العصور الخوالى تصويرا جمع الى الحقيقة والامانة الوضوح والجلاء. فلم يتجاهل محامدها وهى كثيرة ولم يغض الطرف عن عيوبها واى الشعوب تخلو من العيوب

قام بواجب المؤرخ يدون الحوادث ويردها الى اصول عامة ليستخلص منها الحقائق . عرف ان التاريخ لم يبق مقتصرا على ايراد الوقائع. بل هو يجمع الى سرد الحوادث نقدها . والى وصف العادات تقدير الافكار والمبادىء والى رواية اعمال الرجال درس اخلاقهم مبينا تاثير الرجل فى زمانه وتاثير الزمان فى الرجل . وهذه هى فلسفة التاريخ .. »

ويصور محمد فريد وجدى مدى الجهد الذى احتمله « جرجى زيدان » المؤرخ فيقول :

« التمدن . .عمل ضخم لا يقل ضخامة عن كتابه تاريخ الادب العربى ان لم نقل يفوقه كثيرا . لم يغادر فيه مظهرا من مظاهر هذا التمدن الفخم الا بينه وفصله اكمل تفصيل

ومثل هذا العمل لو قام به رجل فى البلاد التى تقدر العلم قدره وتجزى اهله بما يستحقون لنصبوا له تمثالا . ولكننا فى الشرق حيث يستفاد من عمل النابغين وتنتهب ثمرات كدهم انتهابا امام اعينهم مع غموط حقوقهم والسعى لطمس اسمائهم . .

ان من يتصفح تاريخ التمدن الاسلامى يعجب بل يدهش من الصبر على الجهد المضنى الذى بذله مؤلفه فى مراجعة كل هذه المصادر العلمية من عربية واجنبية من عدة مؤلفات : ثم جمعها وترتيبها وتبويبها مع الاشارة الى تلك المصادر فى ذيول الصفحات لمن يريد ان يراجعها فى مواطنها من المؤلفات المتعددة

وقد لاحظ بعض النقاد على هذا الكتاب ان مؤلفه قد اخطأ فى بعض تلك الاحالات وانه قد اطلق فى محل التقييد وعمم فى مواطن التخصيص وهذا كله مع افتراض صحته لا يعقل ان يخلو منه كتاب فيه خمسة آلاف احالة ومما يدل على عظم قدر الكتاب وجلالة موضوعه انه قد مضى عليه اكثر من ثلاثين سنة (١) ولم يحاول احد ولا جماعة وضع مثله ، مع ان المجال يسع عشرات من أمثاله

ان من اكبر مظاهر الشرف لمؤلف ان يتقدم سواه فى وضع عمل ضخم من هذا الطراز فيظل اكثر من ثلث قرن المورد الوحيد لمئات الالوف من الباحثين والمستفيدين »

اما احمد امين وهو العالم المؤرخ الذى درج على سنة جرجى زيدان واستفاد من جهوده فيقول : « كانت دراسة التاريخ فى

---

(١) كتب عام ١٩٤٢

العالم الشرقي عندما بدا جرجي زيدان في تأليفه التاريخ ، قد تقدمت بعض التقدم بفضل نشاط المطابع في نشر الكتب التاريخية والادبية القديمة فعكف الخاصة على قراءتها والاستفادة منها . كان ينقصهم شيء آخر هام لا يستطيعون الاستفادة منه وهو اطلاعهم على المجهود الضخم الذي قام به المستشرقون فمنذ القرن الثاني عشر الميلادي بل وقبل ذلك والمستشرقون يبحثون في الحضارة الاسلامية وآداب اللغة العربية

ولما اخترعت المطابع اخذوا ينشرون الكتب العربية التاريخية والادبية في جد ونشاط والفوا الجمعيات الاستشراقية والمجلات المتعددة فكان من عملهم ثروة كبيرة . والى جانب ذلك كله كان لهم فضل آخر وهو منهجهم الذي اتبعوه في البحث وعنايتهم بذكر المصادر ومناقشة الادلة ونظرتهم العامة الى الموضوع وتحليل اسبابه وعلله وما الى ذلك كل هذه الثروة كانت مجهولة عند اكثر المشتغلين بالتاريخ والادب في العالم الشرقي لجهلهم باللغات التي الفت بها . وقد استفاد جرجي زيدان من المكتبة العربية والمكتبة الادبية الاستشراقية واستطاع ان يمزج ذلك فيخرج نتاجا جديدا . .

وتاريخ التمدن الاسلامي عمل في منتهى المشقة والعسر . فالمتعرض له يلزمه أن يكون مثقفا ثقافة واسعة في العلم والادب والفقه والمذاهب الدينية وقواعد التطورات الاجتماعية ولكل فرع من هذه الفروع مصطلحات دقيقة

والمؤلفون من مؤرخي العرب لم يعتنوا بالناحية الاجتماعية والمدنية عنايتهم بأحداث الخلفاء والملوك والوقائع الحربية والعزل والولاية ، فيضطر الباحث الى تقليب الكتب العديدة لاستخراج نص في ظاهرة جديدة وتقليب كتب اخرى لاستخراج نص آخر في مائتي مجلد ما بين عربي وفرنسي وانجليزي والماني . كما يجمع النصوص الواردة في موضوع واحد ويسلط عليها ذهنه ليربط بعضها ببعض ويستخرج منها صورة كاملة

. . وقد أخذ عليه ان يستنتج من النص اكثر مما يحتمل . وقد

يفسره تفسيرا غير معروف وقد يعتمد على كتب لم يؤلفها المؤرخون. ولكن هـذا كله لم يقلل من قيمة هـذا العمـل الضخم الذى تعرض فيـه لان يشرح الحضارة الاسلامية فى ثروتها وادارتهـا وسياستها وجنديتها وعلمها وادبها وصناعتها وخلقها واى مؤلف سلم من النقد وعصم من الخطـا انما الخطـا الفاضح ان يعمد قوم الى اخذ بعض المساوىء فيشهرون بها ويتعمدون تغطية المحاسن وسترها .. »

وقد صور جرجى زيدان مدى الجهد الذى احتمله فى سبيـل الامانة العلمية والتاريخية وموقف خصومه من المتمسكين باقوال القدماء والمزدرين للمستشرقين فقال : « لا نظن كاتبا من كتاب العصر لاقى ما لا قيناه من الانتقاد فى اثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضـع وعشرين سنة » وعندنا ان النقد الذى وجه الى جرجى زيدان كان جائرا وقد قال ان الخاصة نقدوه لانه لم يتوسع بقدر ما يشتهون . كما نقده غير الخاصة لانه اتى باكثر مما يشتهون وتقـده بعض المسلمين لانه نقض بعض محاسنهم وتقـده بعض المسيحيين لانه تحمس للمسلمين اكثر مما ينبغى . . واليوم تبخر هـذا كله وانطوى. وبقى جرجى زيدان علما من اعلام المؤرخين

والذى لا يمكن ان ينسى فى تاريخ عمل جرجى زيدان التـاريخى ويجب ان يسجل بمزيد من الاعتبار والتقدير انه كان يختم عمله دائما بعبارة : « العصمة لله وحده » وكان يطالب القارىء بأن يرده اذا كان قد اخطـا او سها وهو دائما يذكر الفضل لاهله . ولا يدعى العلم بكل شىء . وهى صفات فيها تواضع العلماء ونصاعة ارواحهم

وهو يسجل هذا المعنى فى مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث »

« يقال فى الامثال : من الف فقد استهدف فان أحسن فقـد استعطف . وان اساء فقد استقذف . اما انا فان احسنت فان الفضل لافاضل الـكتبة وثقاة الرواة الذين سـبقونى لانى لم آت بشىء من عند نفسى ما خلا الحوادث التى قدر لى ان اكون شاهد عين . وما تفقدته بنفسى من الآثار العربية والمصرية والدراسـات فذلك داب العاجز ولـكنى ارغب الى من يعثر لى على خطـا ان

ينبهنى اليه لانى استحى من الحق اذا عرفته الا ارجع اليــه او يعذرنى فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا قول ان كل خطـأ سهو جرى به القلم بل اعترف ان ما اجهل اكثر مما اعلم . وما تمام العلم الا لمن علم الانسـان ما لم يعلم »

والخصلة الثانية التى اسجلها له هو انه يضيف فى الطبعات التالية زيادات وتصحيحات مما يتجمع له فى الفترة بين الطبعتين وهو فى ذلك يدلل على مدى حرصه على ان يطلع القارىء على آخر ما وصـل اليه من تطور العلم فى المسائل التى يعرض لها

الاديب

لا ريب ان جرجى زيدان من علمـاء الادب ومؤرخيه . امدته ثقافته العلمية الواسعة بالقدرة على بلوغ غاية المدى فى اعداد هـذه الرسالة الضخمة التى سجلت تاريخ الادب العربى منذ العصر الجاهلى حتى وفاته عام ١٩١٤ . وقد كان عمله هذا خطيرا وجليلا ما اظن ان كاتبا من كتابنا ، أو اديبا من أدبائنا لم يتخذه مرجعه فى ابحاثه ودراساته ، ويتسم عمله هذا كما تتسم أعماله الاخرى بالطـابع العلمى الواضح والاسلوب التلغرافى . والبسـاطةوالعمق ونقاء العبارة والتحرر من قيود التقليد التى عرفت بها الابحاث التى سبقتـه

ولم يقف عمل جرجى زيدان عند هـذا البحث الادبى بل كان « هلاله » مرجعا ضخما للتطور الادبى يسجل حلقاته شهرا فشهرا

ولقد لقى جرجى زيدان فى عمله الادبى ما لقيه فى عمله التاريخى من عنت معاصريه ولـكنه صمد واغضى ولم يراجع الا فى صـميم الاتجاه الموضوعى

واذا كان جرجى زيـدان قد كان بعيد الاثر فى البيئة الادبية فما هى العوامل التى اعطته هذه المكانة الضخمة

يقول طه حسين : كان هنـاك كتاب وعلماء وشعراء ومفكرون ، كما كانت هناك مجلات كثيرة مختلفة ولـكن الواضـح ان جرجى زيدان كان ابعد هؤلاء المثقفين اثرا فى الحياة الادبية المعاصرة كماكانت مجلة الهلال ابعد المجلات اثرا فى هذه الحياة الادبية

ذلك ان جرجى زيدان لم يكن ارستقراطى المزاج وانما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين اشد الاختلاف ولـكنهما نافعتان اشد النفع احداهما النزعة العلمية التى تظهر فى هـذه الـكتب التاريخية نفسها وتظهر بنوع خاص فى قصصه . وفى فصوله الثقافية العامة

فهو قد كان يتجه اذن بعلمه وادبه الى أوساط المثقفين. ولست اعرف بيئة احسن استعدادا للانتفاع بالثقافة من هذه البيئة المتوسطة التى لا يرتفع بها الامتياز عن الاستفادة ولا يحيط بها الجهل عن الانتفاع بما يقدم اليها من غذاء العقل والقلب والروح..»

وهذا معاصر آخر من تلامية جرجى زيدان والهلال يصور الجانب الادبى منه

« كان جرجى زيدان من كتاب ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعية ؛ ونسميه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم . وقد اشار الى هذه الحاسة فى مقال قيم نشره فى السنة (٢٢) من سنى المجلة وقال فيه : « .. ان نجاح الناس فى اعمالهم يتوقف على مقدار ما فيهم من هذه الحاسة أكثر من مقدار ما أحرزوه من سعة العلم او المهارة فى الصناعة أو التجارة أو غيرها من وسائل المعاش. وهى أعظم اهمية فى معترك الحياة من الذكاء واقل شيوعا منه . لا تزيد نسبتها فى الناس بالنظر الى الذكاء على اثنين او ثلاثة فى المائة . اى ان الامهات يلدن اربعين ذكيا قبل أن يلدن واحدا من ذوى الحاسة الاجتماعية . ولذلك كثر الاذكياء . وقل الناصحون منهم لأن النجاح لا يتأتى للذكى ان لم يعلم كيف يستخدم ذكاءه ولا فائدة من العلم ان لم يحسن الاسلوب فى أدائه ..

ونحن حين نذكر الاستواء او الطبع السليم لا ننظر فيه الىناحية النجاح فى الاعمال وحسن استخدام الذكاء . وانما ننظر فيه الى مصدره من السليقة ومظهره فى اختيار الموضوعات ورسالاتالحياة. وهذا الاستواء هو الذى جعل آثار جرجى زيدان فى تثقيف قراء العربية اقل ظهورا من الواجب لها ومن الحقيقة الواقعة

ولو كان جرجى زيدان من كتاب الانحراف والتحيز لا من كتاب الاستواء والطبع السليم لظهرت دعوته أوضح من هذا الظهور . وتحيزت رسالته كما تتحيز كل رسالة يبعث اليها التعصب لفكرة خاصة والاندفاع فى طريق دون سائر الطرق والاستحماس لمذهب من المذاهب يراد به الهدم اكثر مما يراد به البناء ..

جرجي زيدان لم يكن متعصبا ولم يكن يتحزب ، ولم يكن يصبغ آراءه بلون من الوان الطيف الشمسي غير اللون الاصيل العام الشائع في ضياء النهار فكانت آثاره من اجل هذا تسري خـــلال القرائح والنفوس في غير خلابة . ولا ضجيج ، ولا التفات كثير ، كما يشهد الانسان الف نهار مضيء فلا يستبقي من الشعور بها ما يستبقيه مناظر النيازك الملونة المفرقعة في احدى الليلات

تقرا جرجي زيدان في جميع موضوعاته فاذا هي مطبوعة بطابع السداد والاستقامة والاستواء . هي جداول وليست بشلالات . وهي نبت الدوام وليست نبت الفلتات والجمحات . هي ماء قراح وليست بالقازوزة

اختر ما تشاء من مقالاته حيثما كانت مقاصدها في الاجتماع او الاخلاق او الآداب او الحكمة او السياسة العامة او عبر التاريخ ، فانك واجد فيها لا محالة سدادا من غير جلبة ولا تلوين ولا زخرف ولا اصطناع

الطبع السليم هو اساس تفكيره ويمده بعد الطبع السليم مددان قويان نافعان . احدهما الاطلاع الواسع على تواريخ الامم وعبر الدهور ، وثانيهما البحث العلمي الحديث مما استفاده من دراسة الطب والصيدلة وسائر العلوم فضلا عن مراس الحياة العملية

وجرجي زيدان أقرب الى مدرسة الحكمة منه الى مدرسة العلوم الطبيعية مع اخذه من العلوم الطبيعية بنصيب مفيد . فكان مزاج هذا الرائد الكبير مزاج الحكيم المؤرخ الجانح الى استكناه الحقيقة عن طريق النظر الصحيح . وان لم يكن لذلك النظر الصحيح مسبار من قوارير المعامل وانابيق التحليل

وحكمه حكم أديب يعتمد على الخبرة والمراس الصادق والنظر الصحيح كما يعتمد على تجارب المعمل وتحليلات الانبيق . وبهذه الخبرة توفر على كتابة اعداد الهلال فكتب منها في حياته ما يساوي مائتي كتاب منجمات على حسب الشهور

وبهذه الخبرة توفر على تاليف التواريخ ونقد الآداب وتنسيق

القصة التاريخية عشرين سنة ونيفا . فارسل اشعة النور الى قرائه العديدين وقد كان له قراء فى كل صقع من اصقاع الارض يأوى اليه لسان عربى او عقل مشغول بشئون الشرق والاسلام . . »

وجرجى زيدان قد بلغ غاية الجهد فى سبيل اداء رسالته الادبية حتى انه عمل فى بعض الاحيان فى حقل لامراجع فيه :يقول عبدالعزيز البشرى عن الجزء الرابع من كتابه تاريخ آداباللغة العربية :«بحسبك ان تطالع الجزء الاخير من هذا الكتاب . اعنى الجزء الذى يتناول فيه العصر الاخير ، لتدرك مبلغ الجهد الذى انفق فى ترجمة مئات من اهل الفضل البارعين فى مختلف العلوم والفنون ، من شرقيين ومستشرقين واثبات اخبارهم وتقصى آثارهم وتحقيق سيرهم وتجلية صورهم ، ولا مرجع بين يديه ولا مستند يتكىء عليه .وبهذا كان هذا الجزء من اغزر الينابيع التى استقى منها كل من تحدثوا عن تاريخ الادب العربى فى العصر الحديث . . »

ولا شك ان عمل جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية — كما يقول احمد امين — يريد به ان يتمم ما بداه ابن النديم فى فهرسته فيجعل منه دائرة معارف للعلماء والادباء والشعراء ووصف مؤلفاتهم وما بقى منها وما عدا عليه الزمن . وكان منهجه فيه منهجه فى سابقه فى الاحاطة بقدر الامكان بما الف فى ذلك من كتب العرب وكتب المستشرقين . وهو اشق من التمدن الاسلامى واعقد لانه يتطلب احاطة تامة وعلما واسعا بما فى خزائن الكتب فى الاقاليم المختلفة شرقية وغربية وقد اجمع مؤرخو جرجى زيدان على انه « واضح (١) الاسلوب يكتب للناس بلغتهم المتعارفة التى يتفاهمون بها فى جرائدهم ورسائلهم لا بتلك اللغة المخصوصة التى يتخذها جماعة من الكتاب درعا لهم تقيهم عند غموض الفكرة أو فساد التعابير التى يجيئون بها . ويكتب من غير عناء ولا تكلف بل يرسل قلمه حرا الى اقصى درجات الحرية

وبهذا الاسلوب البسيط يعبر عن كل ما يريد ويفهم القارىء بكل

---

(١) هيكل — الجريدة ٢٨ ابريل ١٩١٢

دقة ، الفكرة التى تجول فى نفسه . ثم هو لا يلجأ الى لغة الخطابة الا نادرا ، بل تراه فى قصصه التاريخى الذى يريد ان يقصه بكل سهولة يعبر عما فى ضميره كما هو فى ضميره لا يجهد فى تفخيمه ولا تجميله ويحكى القصة التى وقعت كما وقعت من غير حاجة لالحاق كل عمل منها بالصفات والمترادفات التى يضعها بعض الكتاب فى كل المواضع ولو مع عدم لزومها

اذن فهو انما يريد من كتابته أن يؤدى فكرته « من حيث ترتيبها وسبكها فى عبارة سالمة من الركاكة والتعقيد — كما يقول — اما من يكون مرماهم فى التاليف بيان قدرتهم على الانشاء والغوص على المعانى العويصة والالفاظ الغريبة فهؤلاء وامثالهم يكتبون لأنفسهم او لطبقة خاصة لغرض خاص ولهم منزلة وفضل ولكن من غير الخدمة العامة . . »

وقد تعرض الدكتور هيكل فى بعض مباحثه عن مقارنات بين طريقة جرجى زيدان فى كتابه تاريخ الادب العربى وبين طريقة مصطفى صادق الرافعى

وابان الفرق بين الطريقتين « هو اول من تعرض لهذا التاريخ على طريقة تحاكى طريقة البحث الحديث فى البعد عن التعصب وفى تحرى الحقيقة لذاتها . كان الفرق بين كتابه وكتاب الرافعى ان هذا الاخير كان يعتبر العرب امة بعثت بها السماء وخلقها الله خلقا خاصا . وتعتبر اللغة العربية لغة سماوية ليس بين لغات الارض شىء يضارعها جمالا وعظمة . اما جرجى زيدان فكان متحللا من هذه الاعتبارات وكان ينظر للغة العربيـــة والادب العربى نظرة موضوعية ومتجها على ضوء الطرائق الحديثة ، يشك فيما يرى مجالا للشك فيه من ادب الجاهليين وغير الجاهليين ويثبت ما يرى اثباته من ادب هؤلاء واولئك

وكان الى هذا يختلف اسلوبه الكتابى عن اســـلوب الرافعى كاختلافهما فى اسلوب التفكير . كان اسلوب جرجى زيدان اسلوبا صحفيا لا يمتاز بمتانة الديباجة ولا بروعة البيان ، وان كانت فيه

بساطة ويسر يجعلانه قريبا من افهام الناس جميعا .. »

ونحن مع فريد وجدى فى ان جرجى زيدان هو أول من وضع تاريخ الادب العربى على النحو الذى يعرفه المعاصرون من معنى هذه الكلمة ، وهو بهذا الوضع امكن ان يثمر ثمراته التى نقتطفها منه جنية يانعة اليوم » وهذا العمل وحده يكفى لبناء صرح من المجد للرجل الذى قام به وحده فما ظنك وهو ليس كل ما أنتجته المعية جرجى زيدان فى ثلث القرن الذى امضاه من حياته فى خدمة الادب .. »

هذا ولا شك أن جرجى زيدان » قد وقف فى طريق فاصل فتخير سبيله — كما يقول خليل مطران — بين طريقين ثم اختار الطريق الاكثر مشقة ، فهو اما أن يكون كاتبا محض اديب يسعى لمجاراة أعلام النهضة البيانية فى وقته . واما أن يكون كاتبا يعنى المادة العلمية التى تغذى الادب وتجعل من البيان خير وسيلة فى امة قريبة عهد بنهضتها لتعيش على حقائق ماضيها وجلائل الوقائع فى تاريخها ما يكون خير معوان لها على استكمال وسائلها للحياة الجديدة .. »

الصحفى

لم يكن العمل الصحفى الذى باشره جرجى زيدان بانشاء«الهلال» عام ١٨٩٢ هو عمله الصحفى الاول . ذلك انه عندما حضر الى مصر عام ١٨٨٣ ليتم تعلم الطب فى كليـــة الطب المصرية ولم يتحقق له ذلك اتجه الى العمل الصحفى فى جريدة الزمان اليومية التى كانت تصدر فى القاهرة فامضى فى العمل فيها عاما أو بضع عام

وعاد جرجى زيدان بعد ذلك فعمل مديرا لمجلة المقتطف عامين كاملين (١٨٩٠ — ١٨٩١) ومن هاتين التجــربتين كون فكرته فى اخراج « الهلال » فصدر مخالفا تمام المخالفة لاتجاه «المقتطف» الذى كان مجلة علمية زراعية بينما كان « الهلال » مجلة ادبيـــة تاريخية وليس شك فى ان تجربة العامين اللذين قضاهما «جرجى زيدان» مديرا للمقتطف قد هيأت فى ذهنه الخطوط العامة لتحقيق فكرة انشاء مجلة شهرية تسـد الفراغ فى الجانب الآخر الذى لم يكن فى وسع « المقتطف » أن يسده ، ذلك أن « المقتطف » كان صورة من شخصية منشئه « يعقوب صروف » الرجل « العالم » وكان طبيعيا ان يكون « الهلال » صورة من نفس صاحبه « المؤرخ »

ولسنا ندرى متى فكر « جرجى زيدان » فى انشـــاء الهلال . ولــكن لا شك انه كان حريصا على أن ينشر الثقافة التى تصــدى للعمل لها على اوسع نطاق ولم يكن « الــكتاب » وحده كافيــا لتحقيق ذلك ، وكان لا بد ان يربط نفســه بالقارىء على صــــورة اكبر صلة واوسع نطاقا فكان لا بد من انشاء هذه « المجلة »

ولقد ثابر جرجى زيدان على اخراج المجلة . وبذل الجهد وتحمل الــكثير من التضحيات حتى نجح الهلال نجاحا منقطع النظير واصبح له قراء فى جميع بقاع العالم

كان جرجى زيدان فى سن الحادية والثلاثين عندما اصـــــــدر

الهلال . وكان فى ذلك الوقت قد اختزل الحياة فى رحلات متعددة الى لندن والخرطوم والقاهرة والتقى بعدد كبير من العلماء والاعلام. ودرس لغات كثيرة ، وقرأ كتبا مختلفة فى التاريخ والادب والاجتماع وتسلح بهذا الزاد كله فى سبيل عمله الجديد ، وكان له من شخصيته المتزنة ، وعقليته المركزة ، ونفسه المنصرفة الى العمل العازفة عن الاهواء والبريق ما هيأ له النجاح فى عملــه الجديد ، وهو كما صوره « طه حسين » أحس حاجة الشرق الى هذه المجلة وأحس قدرته على انشائها وان انشاءه لها عام ١٨٩٢ كان حدثا من الاحداث الادبية ذات الخطر البعيد ..

وقد صدر العدد الاول من الهلال فى أول سبتمبر عام ١٨٩٢ فى ٣٢ صفحة طبعه فى مطبعة صغيرة ، يحتوى على خمســة ابواب : (١) أشهر الحوادث واعظم الرجال (٢) المقالات (٣) الروايات (٤) تاريخ الشهر (٥) منتخبات من الاخبار والتقاريظ.

واعلن انه يصدر مرة كل شهر بمعدل ١٢ عددا فى الســنة تبتدىء فى سبتمبر وتنتهى فى اغسطس . وفى خلال السنة الاولى ظهرت رغبة القراء فى زيادة حجم الهلال واتســاع مادته

وفى السنة الثانية ظهر « الهلال » مرتين فى الشهر : الاولى فى أوله ، والثانية فى منتصفه واصبح عدد أجزاء الهلال فى السنة ٢٤ عددا كل جزء يحتوى على٣٢صفحة وقد زاد بابا سادسا هو باب : (الســؤال والاقتراح) مع بقاء اشتراكه ٥٠ قرشا وفى السنة الثالثة زاد الهلال ١٦ صفحة (٨٠ صــفحة فى الشهر) واضــيف اليه (باب الاخبار العلمية) أدرج فيه ما كان يحدث فى العلم والصناعة من المبتكرات والاختراعات والاكتشافات

فى السنة الرابعة أدرج فيه قسما من فصول رواية تاريخية غرامية بعنوان : « ارمانوسة المصرية » وصار ينشرها تباعا

وزاد فى السنة الخامسة باب «مشاهير العصر» فيه رسوم مشاهير العصر الاحياء

وظل الهلال يصدر فى موعده دون تخلف ، وفى العام العاشر أدخل

اليه منشئه باب « صحة العائلة » وزاد الرسوم وطبعها على ورق خاص ، وبدأ يقدم هدايا للمشتركين وكانت هدية السنة العاشرة كتاب « التمدن الاسلامى » ثم اضاف باب « عجائب المخلوقات »

وفى السنة الثانية عشرة أصبح الهلال يصدر عشرة اعداد فى السنة مع بقائه مرتين فى الشهر مع تعويض المشتركين بكتاب فى حجم اجزاء الشهرين

وفى السنة السادسة عشرة زاد باب « غرائب العادات والاخلاق » وباب « احوال الدول المعاصرة » وفى السنة التاسعة عشرة بدأ الاستاذ اميل زيدان يكتب المقالات وفى خلال العقد الثانى من عمر الهلال ظهرت اسماء عديدة من العلماء منهم المقدسى والدكتور نقولا فياض وحافظ ابراهيم والدكتور شبلى شميل

وظل جرجى زيدان يصدر « الهلال » حتى عدد اغسطس عام ١٩١٤ الذى كتب آخر حرف فيه قبل أن ينتهى اجله فى ٢٢ يولية عام ١٩١٤ وهذا هو العام الثانى والعشرون للهلال

اى انه رحمه الله اصدره ٢٦٤ شهرا « سبتمبر عام ١٨٩٢ ـ اغسطس عام ١٩١٤ »

وقد توخى مؤسس الهلال « الاسلوب التلغرافى » فى كل ما كتبه مع توضيحه بالصور والخرائط العديدة ، ولعدم وجود محلات زنكوغراف فى مصر فى ذلك الوقت كان يرسل لعمل الاكلشيهات اللازمة فى اوربا

وكان يتولى فى اول انشائه جميع شئونه التحريرية والادارية ، ويشرف بنفسه على اعمال طبعه ، ولما اتسع نطاق المجلة عهد فى ادارتها الى شقيقه ، واستخدم آخرين للاشغال الاخرى ، وعكف هو على التحرير والتأليف ، وعنى عناية عظيمة بالتاريخ ، وعلى الاخص تاريخ الشرق وتاريخ رجاله العظماء ملوك وقادة وفلاسفة ورجال العلم والادب

وقد رسم جرجى زيدان هدفه فى العدد الاول من الهلال (٦ ديسمبر عام ١٨٩٢) فقال :

« لابد للمرء فيما يشرع فيــه من فاتحــة يستهل بها ، وخطــة يسير عليها ، وغاية يسعى اليها اما فاتحتنا فحمدا لله على ما اسبغ من نعمه ، وافاض من كرمه ، والتوسل اليه ان يلهمنا الصـــواب وفصل الخطاب

اما خطتنا فالاخلاص فى غايتنا والصدق فى لهجتنا والاجتهاد فى ابقاء حق خدمتنا ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة اصحاب الاقلام من كتبة هذا العصر ، من كل صقع ومصر

اما الغاية التى نرجو الوصول اليها فاقبال السواد على ما نكتبه ، ورضاؤهم عما نحتسبه واغضاؤهم عما نرتكبه ، فاذا اتيح لنـــا ذلك فقد استوفينا اجورنا فننشط لما هو اقرب الى الواجب علينا

وقد دعونا مجلتنا « الهلال » لثلاثة اسباب :

أولا : تبركا بالهلال العثمانى . .

ثانيا : اشارة لظهور هذه المجلة كل شهر

ثالثا : تفاؤلا بنموها مع الزمن حتى تتدرج فى مدارج الـكمال فاذا ما لاقت قبولا واقبالا اصبحت بدرا كاملا باذن الله . . »

ومن هذا المنهاج يظهر اتجاه جرجى زيدان الصــحفى واضحا ، يهدف الى العمل الثقافى ، ويفهم رسالته فهما عميقا ، ويعرف رغبة القارىء واتجاهه ، ويحرص على ان يؤدى واجبه على أكمل وجه

وقد صور جرجى زيدان علاقته بالقارىء وفهمه لرســـالته فى أكثر من مناسبة :

يقول « ظهر فى نهضتنا هذه مئات من الكتاب والعلماء لم ينبغ منهم فى خدمة الامة الا عدد قليل . وظهر مئات من الجرائد والمجلات لم يبق منها الا عشرات قليلة لا يعد ناجحا منها نجاحا حقيقيـــا الا عشرة واحدة

واذا تدبرت هذا التفاوت فى نجاح هذه المشاريع وسقوط معظمها لا تجده ناتجا عن تفاوت طبقات الكتاب فى العلم بل عن تفاوتهم فى الشعور بحاجة الأمة وتفاوت اقتدارهم على تطبيق ما يعرفونه عن حاجتها . . »

ويقول « نحن فى حاجة الى العلم لكننا أحوج الى الشعور بحقيقة حالة الأمة بحيث نطبق علمنا على حاجتها • وهذا التطبيق يحتـاج الى الحاسة الاجتماعية فى كل جزء منه بل فى كل سطر مما يكتبـه المؤلف فى اى موضوع فينبغى له وهو فى مخدعه أن يجرى القلم على القرطاس لكتابة مقاله وأن يتصور القارىء بين يديه ويتململ من كل فقرة معقدة وينفر من كل عبـــارة غير صريحـة وليعلم ان القارىء كالشارى انما يهمه حقيقة ما تحويه تلك المقالة من المنافع الادبيـة والمادية دون النظر الى زخرف الكلام واذاكان من القراء من تهمه تلك الزخارف فلانه لم يتعود الحقائق بعـد فاذا تعودها لا يعطف عـــلى سواها •• »

ويقول « للحاسة الاجتماعية دخل كبير فى العلم من حيث تطبيقه على حاجة الأمة فالمشتغل بالعلم لا يكفى أن يكون عالما بل ينبغى له أن يعرف كيف يستخدم علمه أو كيف يخرجه للناس ويكون مفيدا لهم لانه لو أحرز علوم الأولين والآخرين ولم يشعر بحقيقة الوسط الذى هو فيه ويطبق ما يكتبه أو ينشره على حاجات أهله ذهب علمه ضياعا وأضاع وقته سدى •• »

وقد سجل صاحب الهلال مولد الهلال فى كتابه الجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية فقال :

« صدر الهلال فى القاهرة ١٩٨٢ لمنشئه مؤلف هذا الكتاب ولا يزال يصدر فيها • وهو يبحث فى الادب والتاريخ والاجتماع والعلم وما يحدث فى الاكتشافات والاختراعات ويتبسط على الخصوص فى التاريخ وفلسفته وفى الابحاث الاجتماعية

•• وفى السنة التى صدر فيها الهلال صدرت مجلة « الاستاذ » للمرحوم عبد الله نديم وهى مجلة ادبية انتقادية لم تتم السنة على ظهورها حتى اقفلتها الحكومة • و « الفتى » لاســـكندر شلهوب • و « الفتاة » لهند نوفل وهى أول الصحف النسائية •• »

وذكر صاحب الهلال أول من استخدم كلمـة « مجلة » هو الشيخ ابراهيم اليازجى وأن أقدم المجلات التى صدرت بمصر «اليعسوب»

عام ١٨٦٥ . والمقتطف فى بيروت عام ١٨٧٦ للدكتورين صروف ونمر وهو علمى صناعى زراعى انتقل سنة ١٨٨٦ الى مصر ولا يزال يصدر فيها وهو الآن شيخ المجلات العربية ومجلاته خزانة علم وصناعة وزراعة وأدب وشعر . وصدر « الشفاء » فى مصر عام ١٨٨٦ للدكتور شبلى شميل »

وقد وصف « انيس المقدسى » اثر مجلة « الهلال » فقال : الهلال أستاذ الادباء فى الشرق ورائدهم فى مجاهل تاريخهم الفكرى والاجتماعى وللعلامة جرجى زيدان الفضل الاكبر فى تنبيه أبناء العربية الى ماضيهم وتنظيم الوسائل المشوقة لفهم مآثر أسلافهم واتخاذ ذلك أساسا لحياة أفضل وعمران أكمل . كان يجلو لنا تراثنا الماضى فيشعرنا بشىء من الكرامة القومية أو اللغوية

.. قام زيدان والعالم العربى فى حالة من الشعور بالصغار الذاتى يحقر التراث القومى ويعظم ما هو أجنبى . وعرف الغربيون ذلك الشعور فى الشرقين فاستغلوه لمآربهم بل تمادوا فى استغلاله حتى صاروا لا يتورعون عن التشامخ على بنى الشرق ولاسيما الناطقين بالعربية وامتهانهم فى عقر دارهم ..

ولم يندفع « جرجى زيدان » اندفاع الشعراء المتحمسين أوالدعاة القوميين أو الزعماء السياسيين بل سلك مسلكا آخر . سلك مسلك العالم الباحث فدرس بشغف تاريخ العرب وآدابهم ورأى أن يحمل الى العالم ما وصل اليه البحث والتنقيب

فلما أشرق « هلاله » رأى الناس فيه ما لم يروه فى كتاب أو مجلة . رأوا فيه روحا شرقية بحاثة تتغلغل فى ثنايا المكتبات العربية القديمة وتستخرج منها غذاء شهيا للنفوس

.. كان مؤرخا نزيها يحاول الوصول الى الحقيقة مهما كانت . لم تكن بنت ساعة من ساعات الانفعال أو رهينة دعاية من الدعايات بل مستقاة من منابع الاستقرار

ونظم للمتأدبين والباحثين ما كان مبعثرا فى طيات الكتب والمحفوظات فأزاح عن تراثهم الفكرى غواشى الظلمات وغرس فى

نفوسهم بذور الثقة بالنفس .. اذ أراهم ما كان لاسلافهم من آثار في تاريخ الفكر العام .. »

وهذا حق لا شك فيه يمكن على أساسه أن نقول ان كل كتاب العربية فيما بعد ظهور « الهلال » عام ١٨٩٢ هم تلاميذ لجرجي زيدان وآثاره ..

وقد صور انطون الجميل أثر « الهلال » في المحيط العربي العام ، هذا المحيط الممتد الى المهجر العربي في أمريكا الجنوبية .. فيقول « ان رجلا هاجر من الشرق منذ أربعين سنة تلقى خطابا من والده يقول له فيه : يا بني أخشى أن تنسى في ديار الغربة لغة قومك وعادات عشيرتك لانك لا تزال صغير السن . لذلك اشتركت لك بمجلة « الهلال » لتظل تطالع منها لغتنا فلا تنساها وقوامها أنباء شرقنا العزيز

وقد لقي هذا الرجل انطون الجميل في احدى البواخر المسافرة الى أوربا فلما تسمى له عرفه وقال له « اني عرفتك عندما تسميت لاني قرأت لك فصولا في الهلال وهكذا تراني بعد غياب أربعين سنة أحتفظ بلغتنا .. »

وقد أرخ « طه حسين » مجلة الهلال وتطورها فقال « يكفي أن تنظر الى الاجزاء الاولى من هذه المجلة والاجزاء الاخيرة لتلاحظ أن منشىء الهلال كان يكتب مجلته كلها على وجه التقريب . وان صاحب الهلال اميل زيدان بعد الحرب الاولى لم يكن يكتب فيها الا قليلا جدا . ومعنى ذلك أن مجلة الهلال لم توجد لنفسها القراء فحسب وانما أوجدت لنفسها القراء والمحررين أيضا ..

وهي لم توجد القراء والمحررين في البيئة المصرية وحدها ولا في البيئة الشرقية وحدها وانما أوجدتهم في بيئات بعيدة جدا عن مصر والشرق في البيئات العربية الامريكية .. »

ويرى « طه حسين » ان جرجي زيدان من رجال ذلك الجيل الساخط وانه ثالث ثلاثة هما محمد عبده وقاسم أمين وجرجي زيدان « وان الهلال نتيجة من نتائج سخطه وطموحه كما كان محمد عبده رجلا

من رجال هذا الجيل الساخط الطامح وكان الاصلاح الديني وحرية الرأى نتيجة لسخطه وطموحه وقل مثل ذلك في قاسم أمين . وقل مثله في البارودى وحافظ وشوقي وغيرهم من الذين قامت عليهم نهضتنا المعاصرة »

ويرى « طه حسين » ان مجلة الهلال « كانت مصدر أحداث أدبية خاصة كان لها أبعد الأثر في حياة الادب العربي المعاصر . وقلما يشاركها فيه مظهر من مظاهر النشاط الادبي الحديث . فليس من الغلو في شيء أن يقال ان منشيء الهلال قد أوجد في اللغة العربية هذا العلم الحديث الذى نسميه تاريخ الادب ، لا بتاليف كتابه المشهور فحسب . ولكن بالبحوث الكثيرة التي نشرها في الهلال . وبالكتب التي أرخ بها الامة العربية والحضارة الاسلامية

على أن منشيء الهلال لم يقف عند هذا الحد ولكنه بسط العلاقة بين الشرق والمستشرقين وألغى المسافة أو كاد يلغيها بين العلماء الدارسين للغة والادب في الشرق والعلماء الدارسين للغة والادب في الغرب . وازعم أنه هو الذي مهد لهذه الآثار وفتح للشرقيين هذا الباب من أبواب العلم .. »

ثم يصور أسلوب جرجي زيدان في هلاله وكتبه فيقول « كان جرجي زيدان شعبيا في علمه وفي أدبه ولكنه كان بعيدا كل البعد عما يتعرض له العلم الشعبي والادب الشعبي أحيانا من الاسفاف والابتذال ، فكان له من أجل هذا أعمق الأثر في نفوس الذين قرأوه وفي عقولهم أيضا . وما اسعد الذين يستطيعون أن يحصوا لانفسهم بين العلماء والادباء وأوساط المثقفين تلاميذ كالذين تستطيع أن تحصيهم لجرجي زيدان »

أما « أحمد أمين » فيقول ان جرجي زيدان بعد أن عمل عامين في « المقتطف » خرج وفي ذهنه صورة كاملة لما يريد أن يعمله مسترشدا بتجاربه في الحياة وتجاربه فيما زاول من أعمال مهتديا بما تجلى له من ملكاته وتفاعلها مع ظروفه الخارجية »

وقد رأى قراء العربية لا يقرأون « فليحبب اليهم القراءة بالموضوعات

الجذابة والاسلوب السهل والتعلم بالقصص » • وقد وجد قوما « يحاربونه لانه يؤرخ الاسلام وليس مسلما ويبتدع طرقا غير التى ألفوها • والمحافظون دائما – أعداء الجديد – فليستفد من نقدهم وليعف عن سبهم ، وليتركهم للزمان ياكل هجومهم وشتمهم فالقانون الطبيعى ان الزبد يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض»

وصور أحمد أمين متاعبه الصحفية فقال انه صادف معاملات غاشة خادعة وحيلا وسرقات تجوز على الحذر • « فليعد من يثق به من أقاربه ليتولى عنه هذا شيئا فشيئا حتى يفرغ للعلم »

أما مقالاته الادبية فقال عنها أحمد أمين انها « تغلب عليها نزعة الاصلاح ومعالجة المشاكل الاخلاقية والاجتماعية واللغوية » فقد كتب فى « تكوين الاخلاق والعوامل الخفية فى الهيئة الاجتماعية والحقائق والاوهام واللغة الفصحى والعامية • وتغلب على مقالته النظرة التاريخية للموضوع والتسلسل المنطقى للتفكير • والنمط التعليمى فى تحديد الموضوع الذى يريد الكلام فيه »

وقال أحمد أمين انه « قد يؤخذ عليه عدم الجزالة فى تركيب جمله وعدم القوة فى اسلوبه ؛ وعدم الاناقة فى تأدية معانيه . ولكنه كان يعمد الى ذلك عن مذهب فى الكتابة وعقيدة فى الاسلوب واختيار متعمد للمنهج الذى يسير عليه •• »

وقد سجل « جرجى زيدان » مذهبه فى كلمات « •• يجب أن تكون عبارة الكاتب فى البحوث التاريخية والادبية عبارة بسيطة واضحة • سلسة خالية من كل تعقيد حتى تكون المعانى جلية للمطالع كل الجلاء • لا تحتاج فى فهمها الى التوقف لحظة أو مراجعة معجمات اللغة والا فان عجز الكاتب عن ذلك يعد نقصا فى واجبات صناعته •• »

وقد رد على المستر ويلكوكس يخطئه فى رايه عن اللغة العامية ويدافع عن اللغة العربية ويقول « انه من الممكن التقرب الى الافهام بتجنب الالفاظ الغريبة والعبارات المعقدة •• »

وقد وصف جرجى زيدان الكاتب الذى يكتب للناس لا لنفسه بأنه يلزمه أن يتصف بصفات ثلاث

١ ــ أن يختار الموضوع الذى يرى الأمة فى حاجة اليه

٢ ــ أن يسكبه فى قالب سهل سالم من الركاكة والتعقيد ، جار مع روح العصر ، لا كأسلوب هؤلاء الكتـــاب الذين يحسبون اللغة وقفا لا يحل بيعه أو التصرف فيه • وفاتهم ان اللغة خاضعة لناموس الارتقاء ، تتغير بتغير أحوال الاجتماع فتنمو بتولد الالفـاظ الجديدة للمعانى الجديدة والتراكيب العصرية • ومن حاول الوقوف فى سبيل هذا التغيير فقد عارض الطبيعة وهو لا يستطيع أن يقف فى سبيلها ولكنه يفسد عمله

٣ ــ أن يكون صادق اللهجة صريحا فى قوله خاليا من الغرض • وهذا الاخير من أصعب الشروط اذ لا يسهل على الانسان أن يجـرد نفسه من الروابط الدينية والاجتماعية التى تتجاذبه وقد رضعها مع اللبن وتمكنت من نفسه بتوالى الاعوام •• »

وليس من شك أن هذه المعانى خليقة بأن تكون دستورا للصحافة الادبية كتب منذ أكثر من ستين عاما وما يزال حيا نابضا بالحيـــاة يهدى كالمنار كل من عمل فى هذا الميدان ••

الروائى

بدأ جرجى زيدان (١) يكتب القصة التاريخية التى اشتهر بها والتى ابتدعها فى الادب العربى الحديث عام ١٨٩٥ مسلسلة فى أعداد الهلال • وكانت قصته الاولى « ارمانوسة المصرية » وهى تصور قصة فتح العرب لمصر • ثم توالت قصصه حتى أكمل التاريخ الاسلامى كله حتى آخر عصر الاتراك العثمانيين فى اثنتى عشرة « رواية » ترجمت الى اللغات الاوروبية والتركية والانجليزية والفرنسية والفارسية

ولقد كان هذا الاتجاه يمثل جانبا آخر من شخصية « جرجى زيدان » العالم والمؤرخ فما هو الهدف الذى دفعه الى هذا الاتجاه اذن وماذا كان يرمى اليه : لندع الذين أرخوه يتحدثون عن هذا اللون من أدب جرجى زيدان :

يقول « أنيس المقدسى » :

« على ان خدمة زيدان لم تقتصر على أهل البحث وطلاب التخصص بل تتناول جمهرة المثقفين من الناشئة • وذلك بما فصله فى تلك السلسلة الروائية التاريخية التى تعد عملا أدبيا ممتازا • فهو فيها يجعل حقائق التاريخ أدبا شائقا • ولا أعرف سلسلة أدبية كان لها ما كان لهذه من التأثير الصالح فى نفوس الجمهور اذ حببت اليهم دراسة ماضيهم ومعرفة أمجادهم ودفعتهم الى التاريخ عن طريق الفن الخلاب ••

ويقول « انطون الجميل » :

« رأى أن التاريخ يصعب تعميم فوائده اذا اقتصر نشره على كتب التاريخ • فعمد الى وضع حقائقه فى قالب روائى فكان فارس الميدان الذى لا يلحق غباره فى تأليف الروايات التاريخية

---

(١) اقرأ كتاب « نزعات التجديد فى الادب العربى المعاصر » لانور الجندى

ويقول « أحمد أمين » :

« رواياته كلها روايات تاريخية اختار لها وقائع بارزة في تاريخ الاسلام ودرسها في سعة وعمق ، ثم أعمل فيها خياله فخلق لهـــا أشخاصا ورتب وقائعها وأثار لذة القارىء بأحداث الحب والغرام · فمزج الواقع بالخيال والتاريخ بالقصص · وهو فن عنى به أدباءالغرب وألفوا فيه الروايات التاريخية التمثيلية وغير التمثيلية

وقلده في ذلك « جميل مدور » في كتاب حضارة الاسلام في دار السلام ، وهي رحلة صور فيها حالة المملكةالاسلامية في أيام هارون الرشيد · ثم بدأت كتابة القصص مقتبســة من تاريخ العـــرب : كقصص السموأل والمهلهل وشهداء نجران ونكبة البرامكة وحـرب البسوس

وقد أشــــار أحمد أمين الى أن قصص جرجي زيدان كانت تتسم « بمتانة الحبك وحسن السبك والاجادة في التشويق » وانه « صور عصور الاسلام المختلفة في ممالكه المختلفةمسلسلة بعضها فيأحداث الشام وبعضها في العراق ومصر والاندلس

وهو يرمي الى تفهيم أكبر عدد ممكن من قراء العربيـــة للعصور التاريخية الاسلامية والتمهيد للناس ليذوقوا التاريخ بحثـــا كما تذوقوه رواية ولو انسىء في عمره لأتم برنامجه الواسع ·· »

أما « طه حسين » فانه قد شغف في شبابه الباكر بقصص الهلال « .. مهما أنسى فلن أنسى اني كنت فيأيام الصبا والشباب ابدا في قراءة القصة التاريخية من قصص جرجي زيدان فلا أكاد أتقـدم في قراءتها شيئا حتى أفتن بها واذا هي تشغلني عن دروس الازهر حتى أتمها واذا هي تأخذ على تفكيري وقتا طويلا بعد اتمامها ··

ويرى طه حسين ان « القصص التاريخي » هو عمل بعيد الأثر في حياة الادب المعاصر » وانه أثر أدبي خالص لم يعرف حقــــه من الدرس والاكبار » وانه « سجل هذه المحاولة أولا على أنها نحو جديد من أنحاء الانتاج الادبي فيه احياء للتاريخ العربي وفيهتوجيهللشباب وفيه بعد هذا كله تأثير قوي في الخيال .. »

ويقول طه حسين ان النقاد يستطيعون أن يقولوا ما يشـــاءون « ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو ان القصص التاريخي الذي أصدره جرجي زيدان قد كان من أهم المؤثرات التى أتاحت لهذه النهضة أن تؤتى الثمار القصصية التى يستمتع بها قراء العربية الآن ٠٠ »

وقد سجل « جرجي زيدان » تاريخ قصة « أرمانوســة المصرية » فقال « ظهرت الطبعة الاولى من هذه الرواية سنة ١٨٩٥ بعد نشرها فى السنة الرابعة من الهلال ٠ وان رواجها يومئذ واقبال الناس على الهلال بسببها فى تلك السنة حبب الى تأليف سلسلة روايات تاريخ الاسلام ٠ ولم يكن ذلك قصدنا يوم ظهور الرواية فعـدنا الى تأليف رواية فتاة غسان وجعلناها الحلقة الاولى لانها تبحث فى ظهور الاسلام وفتوح العرب فى الشام والعراق ٠ وعده ارمانوسة الحلقة الثانيـة وتبحث فى فتح مصر

وقال فى مقدمة رواية « أبو مسلم الخراسانى »

« شرعنا فى تأليف سلسلة روايات تاريخ الاســلام على أن ننشر منها كل سنة حلقة تضمنها واقعة من الوقائع الكبرى التى أثرت فى تاريخ الاسلام تأثيرا يذكر ٠ وكنا قبل الشروع فى هـذه السلسلة نؤلف الرواية بعد الرواية فى مواضــيع مستقلة كرواية « المملوك الشارد » و « أسير المتمهدى » و « جهاد المحبين » ولم ننشر شيئا منها فى الهلال حتى ألفنا رواية «أرمانوسة المصرية» سنة ١٨٩٥ وهى تتضمن فتح المسلمين مصر على يد عمرو بن العاص عام ١٨ هـ فلاح لنا أن ننشرها ملحقة بالهلال على سبيل التجربة فألحقناها بأملة السنة الرابعة ولبثنا نترقب ما يكون من وقعها عند المطالعين ٠ فرأينا من اقبالهم على الهلال فى تلك السنة ما لم نعهـده من قبل ٠ ولم تبلغ منتصف تلك السنة حتى تضاعف عدد المشتركين ونفد ما كنا ادخرناه من أعداد الهلال للمجموعات فى المستقبل — ولا تزال السنة الرابعة نادرة الوجود دون سائر سنى الهلال الى الآن ٠ ناهيك بما جاءنا من كتب الادباء يستحسنون هذه الخطة ويحرضوننا على نشر الروايات التاريخية الاسلامية فى الهلال ٠ واقترح علينا أحد الاصـــدقاء أن نجعل تلك الروايات متسلسلة من أول ظهور الاســـلام — فننشر

التاريخ الاسلامي في روايات غرامية تشويقا للمطالعين على نحـو ما فعلناه في رواية « أرمانوسة » فاستحسنا هذا الرأى وعزمنـا على العمل به . وبما أن رواية أرمانوسة المذكورة تشتمل على فتح مصر فهى لا تصلح أن تكون الحلقة الاولى من تلك السلسلة فجعلناها الثانية والفنا رواية «فتاة غسان» ضمناها ظهور الاسلام وفتوح العراق والشام وجعلناها الحلقة الاولى ثم الفنا رواية «عذراء قريش» وجعلناها الحلقة الثالثة ثم « ١٧ رمضان » الحلقة الرابعة

وقد لاقت هذه الروايات اقبالا وترجمت الى عديد من اللغات

وقد تدرجنا في حلقات هذه السلسلة بنشر تاريخ الاسـلام من ظهور النبي وفتح الشام والعراق الى فتح مصر ثم ما كان من الفتنة في أيام عثمان وانقسام المسلمين الى مقتل الامام على وانتقال الخلافة من الراشدين الى الامويين ثم مقتل الحسين في كربلاء فتأييد الدولة الأموية من زمن عبد الملك بن مروان على يد الحجاج بن يوسف . وما كان بعد ذلك من فتح الاندلس على يد طارق بن زياد ثم فتحهم بلاد الافرنج الى الواقعة الشهيرة بين شارل مارتل وعبد الرحمن الغافقي واخيرا انحطاط شأن بنى أمية وسقوط دولتهم وقيام دولة العباسيين على يد ابي مسلم الخراساني .. »

ثم أتم جرجي زيدان عمله في ست حلقات أخرى : العباسة أخت الرشيد والأمين والمأمون وعروس فرغانة وأحمد بن طولون وعبـد الرحمن الناصر والانقلاب العثماني

وقال في موضع آخر ... « ان تاريخ الاسلام عبارة عن تاريخ الشرق الحديث او هو تاريخ العالم كله بعد عصر الرومان والفرس فيجدر بأبناء الشرق درسه والاعتبار به

وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية افضل وسيلة لترغيب الناس الى مطالعته والاستزادة منه . خصوصا لاننا نتوخى جهدنا في ان يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هي عليـه كما فعل بعض كتبة الافرنج وفيهم من جعل غرضه الاول تأليف الرواية وانما جاء بالحقائق التاريخية لالباس الرواية ثوب الحقيقة

فجره ذلك الى التساهل فى سرد الحوادث التاريخيــة بما يضــل القراء واما نحن فالعمدة فى رواياتنا على التاريخ وانما تاتى بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين فتبقى الحــوادث التاريخيــة على حالها وندمج فى خلالها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها فيصح الاعتماد على ما يجيء فى هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على اى كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والاشخاص . الا ما تقتضيه القصة من التوســع فى الوصــف ممــا لا تاثير له على الحقيقة ، بل هو يزيدها بيانا ووضوحا بما يتخللها من وصف العادات والاخلاق »

ولا شكان هذا التصوير الصادق لمهمة مؤلف الرواية التاريخية كما حاولها جرجى زيدان يجعلنا نؤمن تمــاما بانه ظل بالرغم من كتــابة الرواية المؤرخ الغيــور على النص التاريخى . الأمين عليــه الذى لا يرضى أن يضحى بالحقيقة التاريخية فى ســـبيل الفن أو الخيال القصصى

وقد استطاع جرجى زيدان ان يحقق ذلك فى رواياته جميعا كما اراده وكما صوره فى مقدمة الطبعة الثانية لقصة الحجاج بن يوسـف التى طبعت سنة ١٩٠٩

وخلاصة ذلك كله ان جرجى زيدان هو رائد القصة التاريخية التى جرى على نسقها فيما بعد «جميل مدور وانطون الجميل »ومضى فيها على اوسع نطاق.« محمد فريد أبو حديد » الذى يعد تلميذ جرجى زيدان فى هذا اللون

وقد حرص « جرجى زيدان » على الوقائع التاريخية فلم يحاول التصرف فيها ولعله من العجيب لتحقيق ذلك انه أورد فى نهــاية صفحات قصصه المصادر التاريخية للمادة التى اعتمد عليها فى بناء الجانب التاريخى من القصة ، ولا شك ان هذا العمــل كان بارعا وباهرا فى تحبيب الجماهير الى التاريخ وما زالت هذه الروايات تلقى مزيدا من تقدير القراء بالرغم من مرور اكثر من خمســين عاما على ظهورها ، وبالرغم من تطور الاسلوب القصصى.وقد لقيت

رواجا كبيرا عندما قامت دار الهلال باعادة طبعها عام ١٩٥٣ و١٩٥٤

وليس هذا العمل الروائى بالسهولة التى يمكن تصورها

فان جرجى زيدان ينقلك الى جو هذه البلاد فى فترات حوادث الرواية ويجعلك تعيش فى نفس العصر بتقاليده وصوره ومظاهره. ثم هو لا يكتفى بذلك بل يجعل لقصته حياة نابضة ومقدمة ونهاية وحبكة وعقدة ... وقصـــة حب تنتظمها من أول صفحاتها الى آخرها

الرائد

« ... لو قدر لى أن أعدد الافذاذ الذين نشــأوا فى الشرق فى الخمسـين سنة الأخيرة وافادوه بكتاباتهم وآرائهم لرايتنى مضطرا أن اضع جرجى زيدان فى مقدمتهم ، فان الحركة الفكرية التى احدثها بأعماله العلمية وآثاره الأدبية بعيدا عن الطنطنة والادعاءات لهى كبيرة الى حد انى أعتبر ان الشرق وان لم يجهل مكانه فانه لم يوفه حقه ، وقل ان تجد اديبا او كاتبا شرقيا من المعاصرين ليس مدينا لجرجى زيدان بشكر عظيم ان لم يكن على ما حصله من مؤلفاته من المادة العلمية فعلى ما استفاده من مناهج البحث ومصادر المعرفة .. »

هذا الكلام الذى قاله رجل متزن الفكر ضنين بعباراته عن أسلوب المجاملة هو « محمد فريد وجدى » يصور مكانة « جرجى زيدان » كرائد فى ميادين ثلاثة : هى التاريخ والأدب واللغــة ، وقــد كتب «جرجى زيدان» فى تطور اللغة وما دخل عليها من ألفاظ ومصطلحات وساهم فى تجـديدها بنصيب كبير . وزيادته فى القصــة التاريخية لا تقل عن هذه الاعمال الثلاثة الكبرى . وقد اجمع على هذا الرأى عدد من الكتاب من مؤرخى الأدب عن هذه الفترة : يقــول احمــد حسن الزيات : « .. لزيدان شرف الريادة لمنتجعى الادب أو فضل السبق الى فن القصة وحسن القدوة فى مهنة الصحافة وحســن الاستاذية فى الهلال على كل قارىء وتاريخ الادب العــربى الحديث يعترف للرجل بكل أولئك »

ويرى « مصطفى لطفى المنفلوطى » أن جرجى زيدان كان رئيس البعثة التعليمية السورية التى وفدت الى مصر فى أواخــر القــرن الماضى فغيرت وجه العالم المصرى تغييرا كبيرا ، وغرست فى صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل والشجاعة والاقدام والهمــة والاستقلال

كان بطلا من ابطال الجد والعمل والهمة والنشاط . يكتب احسن

المجلات ويؤلف افضل الكتب وينشيء افضل الروايات ، ويناقش ويناضل ويبحث وينقب ويستنتج ويستنبط ويجيب السائل ويفيد الطالب فى آن واحد . لا يشغله شأن من تلك الشئون عن شأن غيره لا يشكو مللا ولا ضجرا ولا يحس بخور ولا فتور . فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين يتعلمون منه ان قليلا من العلم يتعهده صاحبه بالتربية والتنمية ثم يقوم على نشره واذاعته بين الناس انفع له ولامته من العلم الكثير والعمل القليل .. »

ويصفه « جبران خليل جبران » بانه « فكرة متحمسة لا ترتاح الا الى العمل وروح ظامئة لا تنام الا على منكبى اليقظة . وقلب كبير مفعم بالرقة والغيرة »

ويراه « شبلى شميل » مبتدعا له طريقة لم يسبقه اليها احد فى هذه اللغة . اذ كسا كل هذه المباحث القديمة ثوبا قشيبا لفت الناظر اليها وحبب الى القارىء مطالعتها » وانه « أنجز فى اقل من ربع قرن ما يعجز الاقران عن الاتيان بمثله فى قرن وتمكن من اتمام فكرته فى خدمة آداب اللغة »

ويصفه نعوم شقير بانه « كان حريصا على الوقت لا يترك برهة تذهب سدى ، واحب الاشياء اليه العمل ، ومع ذلك فكان اذا جاءه صديق فى ساعة العمل رحب به واقبل عليه يحدثه كانه لا شغل له سواه . وله يوم مخصص للزيارة يحفل بالاصدقاء والخلان يتحدثون فى شئون اجتماعية وادبية ومن اروع خلقه حب الاستقلال واحب خلق اليه الصدق . يكره التظاهر والمباهاة ويبعد عن الخصام .. »

ويراه « داود بركات » منارة من المنائر التى قامت فى مصر وارسلت اشعتها الى العالم العربى بل الى العالم الشرقى كله ، ولم يجهل الغرب جرجى زيدان وفضله فترجم بعض مؤلفاته وعين عضوا فى جمعياتهم العلمية فاحسن الى امته بترويج العلم فيها واحسن اليها ببعث ذكرى مجدها القديم فى ذاكرة الغرب

واشار الى ان فضله يبدأ بانة علم نفسه « ويتضاعف هذا الفضل ويعظم ويفخم ويسمو بانه فى مدى حياته كلها كان معلما لغيره ، وهو

وحده مكتبة ضخمة لا ينقصها علم و لايفوتها فن او موضوع نافع حتى يصح ان يقال الى كل طالب « عد الى الهلال تلقى ضالتك »

وقد عرف داود بركات جرجي زيدان فى مطلع شبابه « يشتغل لعائلته نهارا ويشتغل لنفسه ليلا ويجمع بين نبضات قلبه ودقائق حياته ، ويجمع بقوة الارادة بين نشاط الشباب ومدارك الشيوخ فكانه ولد شيخا وبعد ان كان لنفسه وابويه صار لامته وللانسانية

ويرى « حافظ عوض » انه لا يوجد فى العالم العربى فى العصر الاخير من ترك كمية كبيرة من العمل العلمى والادب الجدى مثل منشىء الهلال « فان رواياته ومجلدات الهلال ومؤلفاته التاريخية واللغوية والادبية تكون فى مجموعها موسوعات كبيرة

ويقول : انه لولا اننا — نحن المعاصرون له — نعلم علما لايسرب الظن فيه ، انه هو الذى كتب هاتيك المنشئات ورتب ابوابها ، لداخلنا الشك او تسربت الينا بعض الظنون بأنه لم يكن فيه منفردا ، ذلك لانه عمل مستعظم على كاتب واحد

اما « انطون الجميل » فيقول انه راجع العدد الاول من الهلال وقرا بيان خطة تلك المجلة ثم دارجها فى سيرها فلم يجدها حادت من الخطة التى رسمها لها منشئها ، وان اسم زيدان فى الادب لايزال مقرونا باسم الهلال

وان جرجي زيدان كتب فى شئون الاجتماع والعمران فلم يقتصر على العموميات بل درس الاصول والفروع ، واضاف الى الحقائق الراهنة : المشاهدات والملاحظات التىارشده اليها البحثوالاستقراء

وان كتبه عن التمدن وطبقات الامم وعجائب الخلق وعلم الفراسة والفلسفة اللغوية والالفاظ العربية وتاريخ اللغة العربية وتاريخ آدابها ، كلها شاهد عدل على ما اتصف به من الجلد فى التنقيب والثبات على العمل والرغبة فى الافادة والسعى وراء الحقائق »

ومن هذه « اللمحات » كلها يحق لنا ان نكرر ما ذكرناه فى كتابنا « اضواء على حياة الادباء المعاصرين » من ان جرجي زيدان يقف

على احدى القاعدتين اللتين اشرق عليهما فجر النهضة الفكرية فى الشرق : وهما قاعدة « لطفى السـيد » الذى رسم صـورة « المصرية » وفتح باب النقد الادبى ، وقاعدة « جرجى زيدان » الذى ادخل الى الفكر العربى المعاصر الطريقة العلمية المدنية بالبحث ووضع الخطوط الاولى للابحاث التى جاءت من بعده فى تاريخ الاسلام والادب العربى

آراؤه

تتسم آراء « جرجى زيدان » بالوضوح والاعتدال والعمق ، وهى ليست آراء كاتب عاش بين الكتب وحدها واغلق عليه برجه العاجى كعدد كبير من كتاب الشرق ، وانما كان جرجى زيدان عالما بالحياة خبيرا بها عميق الخبرة ، واسع الافق ، منبسط النفس ، لقى فى حياته العديد من الازمات والمشاكل والمتاعب فاستقبلها بصدر رحب ، وتخلص منها بالحكمة والاتزان ، وعاش حياته صريحا واضحا صادقا ، يرى الخط المستقيم هو اقرب صلة بين نقطتين ، عالج الحياة معالجة واقعية ، واعطته اسفاره ومقابلاته ومعاشرته للطوائف المختلفة فهما للمجتمع العربى وحنكة فى فهم المشاكل وعلاجها ولذلك كانت كلماته كلها من معين الحكمة والتجربة

كقوله : لا يصح الا الصحيح ولا يبقى الا الابقى

- الانتقاد اكثر فائدة من التقريظ
- اعقل الناس اعذرهم للناس

وقد فصل هذا المعنى الاخير فى سطور عميقة قال فيها :

« اساس هذه الفضيلة ان يعرف الانسان قدر نفسه ولا يستطيع ذلك غير العاقل المتبصر ، لان الناس فطروا على الا يروا عيوب انفسهم ، واذا كان بعضها ظاهرا ظهورا واضحا لا سبيل الى انكاره التمسوا لانفسهم عذرا عليه او كابروا فاذا عرف الانسان مقدار نفسه عرف ضعف الطبيعة البشرية وادرك نقائصها واتضحت له الثلوم التى يجرى الخصام منها اليه رغم ارادته . فاذا وقع صاحبه فى مثلها هان عليه ان يعذره ، فالعاقل من لا يبدو منه ما يسىء الآخرين لئلا ينال جزاءه واعقل منه من يقدر المسىء اليه لضعفه او اضطراره او جهله

واذا تدبرت ما يقع بين الناس من الخصام او النزاع رأيت

معظمه ناتجا من سوء الظن لقلة صبر الانسان على التدبر فيسرع بالحكم على صاحبه ويبالغ فى تعنيفه

ويقال ذلك فى انتقاد الناس على الشعراء والخطباء ويغلب على أولئك المنتقدين أن لم يكونوا قليلى المعرفة كبار الدعوى

ويندر أن يجتمع كبر الدعوى وسعة العلم فى واحد ، لأن الانسان كلما زاد علمه زاد اتضاعه لتحققه — ان ما تيسر للانسان معرفته من احوال الطبيعة ونواميسها لا يقاس بما بقى غامضا منها ، ويشعر بتوالى البحث بزيادة جهله »

وهذا المقال يعطى صـــــورة « طابع » جرجى زيدان الهادىء المتواضع الفنى النفس الذى لقى من النقد والصراع والجدل الكثير فواجهه بهذا الاسلوب الحكيم ، اسلوب العلماء والعقلاء ذوى الكرامة

وهو يرى ان « الدين » أساس للشخصية الانسانية ، وخاصة شخصية العالم « قد يظن البعض ان التربية تغنى عن الدين ، وهو وهم باطل ، الدين هو الرادع الوحيد لهذه المطامع ، ان بعض الناس الذين لم يدركوا من العلم الا قليلا يسبق الى اذهانهم ان الكفر من ضرورات العلم .. »

وهذا القول يمثل الطابع السوى فى نفسيـــة « جرجى زيدان » ويزيده قوة وتماسكا ايمانه بالاعتدال فى قوله تحت عنوان : «احفظ شبابك والكهولة تحفظ نفسها »

« .. احتفظ بالعفة والاعتدال واحذر من الاسراف فانه ذاهب بالحياة ، احتفظ بشبابك ولو تكلفت فى بادىء الرأى الظما ، احتفظ به انه زاد الشيخوخة »

« اذا قرات ترجمة رجل عظيم انهض نفسه من دركات الذل والفقر الى مراقى المجد والسؤدد بجده واجتهاده فاعلم انه انما اكتسب ذلك بالنشاط والاقدام والصبر على مضض الايام وذلك لا يكون الا مع العفاف .. »

ولا شك ان هذا المعنى مطابق تماما لشخصية «جرجى زيدان»

وهو يرى أن « الاخـلاق تمثـل الامم اكثر مما تمثلها ســائر

المواهب ، والامة انما ترتقى او تسقط ، وتسود أو تذل باخلاقها ، لا بعلومها وثروتها »

ولطالما تحدث عن الشجاعة الادبية « وهو يرى ان قوامها الجراة فى الراى والصراحة فى القول ، اى ان يبدى الانسان رايه بلا خوف ولا حذر »

وهو يؤمن بان الاعتراف بالخطأ من ابلغ صفات الشجاعة الادبية « .. الاعتراف بالخطأ من اكبر دلائل الارتقاء ، وهو لا يصدر الا عن نفس كبيرة وخلق قوى لأن الاعتراف بالخطأ صواب ، والاقرار بالعجز قوة ، وهل أصغر نفسا ممن يعرف خطأه ويحاول كتمانه بالمكابرة .. »

ويؤمن جرجى زيدان بالثبات ويرى انه قوة فى النفس تساعد صاحبها على مقاومة العوارض وهو ينطوى على متانة الخلق والاعتماد على النفس وسعة الصدر

ويؤمن بالناس ويرى ان العمل الخالص لهم هو أرقى أهداف الحياة « ان لكل انسان مطلبا رئيسيا من مطالب الحياة يوجه اهتمامه ويجعل مدار سعيه اليه وهو نائله ، وافضل هذه المطالب ما كان نيله فائدة للناس واقبحها ما كان فيه ضرر لهم .. »

ولا يقف فهم جرجى زيدان عند أمور الحياة العامة بل يتغلغل فى ادق السرائر « كالحب » مثلا فيرى « انه كثير . امايكون قهريا غير اختيارى وان يكن فى أوله اختياريا ، على انه راجع مع ذلك الى حب الذات لأن الرجل يرى فى حبه للمراة ارتياحا تطلبه نفسه فاذا أحبها انما يحب هوى نفسه »

ويبغض جرجى زيدان « الكبرياء » ويراه عقبة من عقبات الرزق فى سبيل هذه الحياة « فلو عرفت صانعا مهما بلغ من مهارته فى صناعته وكان متعجرفا كبير الدعوى فانك تنفر منه وقد تعاف نفسك الانتفاع بصناعته فرارا من معاملته .. »

حياته الخاصة

لا شك أن الرجل الناجح فى الحياة ، بعيد الاثر فيهـا ، الذى يحفر اسمه على الشجرة الضخمة التىاسمها « التاريخ » بحروف بارزة ، لا شك انه يكون سعيدا فى بيته وحياته الخاصة وبين أهله ، محبا محبوبا

و « جرجى زيدان » هذا الانسان النقى القلب المسالم الوديع المحب للحياة البسيطة الصريحة الهادئة لا بد أن يسعد فى حياته ويسعد من حوله ويملأ الدنيا بالخير والحنان

وقد اجمعت كل الآثار التى كتبت عن « جرجى زيدان » على هذا المعنى ، بل ان مذكرات « جرجى زيدان » الصريحـة غاية الصراحة التى كتبها عن شبابه الى سن الثلاثين تقريبا تعطينا صورة الشاب المحب ــ شديد الحب ــ لوالديه ، الراغب فى اسعادهما وحمل مشاق الحياة عنهما والدائب فى سبيل ارضائهما

وكذلك كان جرجى زيدان بين زوجه وابنائه

يروى « نعوم شقير » عن جرجى زيدان أن أهله كانوا يعشقون خصاله ويباهون به ، وان الله قد وفقه الى زوجة فاضلة كانت له اكبر عون فى جهاد الحياةوكان يحبها محبة يضرب بها المثل « ولقد طالما سمعته يقول : ان امراتى اصل سعادتى ، واساس نجاحى ، لانها بحكمتها وحسن تدبيرها ، قد اراحت بالى فى منزلى فتفرغت لشغلى بكل قواى »

اما ابنـــاؤه فان ــ نعوم شقير ــ يقول انه كان قد علمهم استقلال الفكر والحرية فى ابداء الآراء « وكان اذا اخطأ ولده رده الى الصواب برفق ومحبة كانما يخاطب اخا او صـديقا .. وكان يقول : « ان الاب ليفيد أولاده بقدوته أكثر مما يفيدهم بوعظــه وتوبيخه »

ومن هذا النص نستطيع ان نكشف جانبا هاما من جوانب حياة جرجي زيدان هو الهناءة المنزلية

رجل سوى الطبع تزوج وانجب ، وزوجته تفهمه وقد استطاعت ان تحمل عنه عبء البيت فوجه جهده كله لعمله فكان نجاحه راجعا بلا شك الى راحة باله من متاعب البيت التي كان يمكن ان تثار وتحدث له ارتباكا عاصفا يؤثر بلا شك على عمله الضخم الذى اخرجه للناس

اما ابوته فقد كانت مضرب المثل ، فيها ذلك الطابع التوجيهى الذى يعطى بالقدوة اكثر مما يعطى بالكلام الكثير او بالعصا ، وقد كان هذا سرا من اسرار نجاح اميل زيدان وشكرى زيدان ، هذا النجاح الواضح الذى اكمل رسالة الوالد العظيم ، ودفعها الى الامام بقوة ، وليست البنوة المؤمنة بالاب العظيم باقل عظمة فقد عرف عن الرجلين ايمان صادق بالوالد العظيم وآثاره البعيدة المدى فى تطور الفكر العربى الحديث

وفى اثناء سفر ابنه « اميل زيدان » الى بيروت لطلب العلم كان يرسل اليه رسائل تعليمية غاية فى القوة والتوجيه ، لا شك انها كانت بعيدة المدى فى تكوينه

وفى هذه الرسائل يقول جرجى زيدان « فى سنك كنت جبانا ، ولكنى لم اكن اجد من يشجعنى ولا من يشير على او ينبهنى الى نقص فى ولو وجد من ينبهنى الى نقائصى لوفرت على نفسى تعب سنين وتعجلت النجاح اعواما ، فاستفد انت من هذه الفرصة ، ان العمل فى الدنيا يحتاج الى جراة واقدام كما يحتاج الى الثبات والصبر »

وصدق جرجى زيدان فى تصوير هذا الجانب من حياته ، حياة الرجل الاعزل المغترب الذى غادر بيروت وهو لا يملك اجر السفر ، بل اقترضها ، هاجر ليكمل دراسة الطب فلما لم يتحقق له ذلك ، بدا حياته فى العمل الصحفى ومضى يشق طريقه ، لا يعتمد الا على شىء واحد ، كان قوته وعتاده وماله ، ذلك هو خلقه . خلقه الذى اعطى « الهلال » هذه الصورة من الكرامة والتقدير ، كان خلق

جرجى زيدان واخلاصه وصبره الطويل ــ صبر العلماء على اساءات اشباه العلماء ــ هو سلاحه الذى نجح به

وكان يستطيع جرجى زيدان ان يشتغل بالصحافة ويكسب كثيرا ، وقد اشتغل بها غيره وكون ثروة ضخمة ، ولكنه كان يهدف الى شىء اجل خطرا ، هو « رسالة التثقيف » التى اعد نفسه لها ، ولذلك سرعان ما انصرف عن الصحافة اليومية والسياسية وعمل فى الصحافة الادبية ، فترك جاها عريضا فى الفكر ، وان لم يكن قد استطاع ان يتبلغ باللقمة الا فى عسر شديد

ولقد قاسى جرجى زيدان المتاعب فى اسفار طويلة ، كان اشدها عليه سفره للمرة الاولى من بيروت الى القاهرة حتى انه سجل ذلك فى مذكراته فقال : « قاسيت كثيرا من ركوب الباخرة التجارية التى اقلتنا اليها حاملة شحنة من البقر والغنم »

وقد شهد جرجى زيدان مغامرة ضخمة فى رحلته الى السودان ، هى معارك اعادة السودان حين رافق الحملة النيلة الى السودان

ومضى جرجى زيدان يعمل فى ميدانه ، يعمل كل دقيقة من وقته ويكد بلا انقطاع ويعتقد أن السعادة كل السعادة فى العمل ، يقول خليل مطران : ان من اسباب توفيقه فى العمل انه كان بادنا قوى الجسم فلا يشعر بالتعب

ويقول نعوم شقير ان اهم موضوع كان يشغله فى اوقات فراغه هو « اسرار الوجود والازلية » ، وكثيرا ماقال جادا : « لقد اكتفينا من هذه الحياة علما بعجزنا وقصورنا عن ادراك اسرار الكون فلتعجل بنا الحياة الاخرى لعلنا ندرك من تلك الآثار ما يشفى العليل »

وكان يقول «اود ان اكون جالسا فتفارقنى الحياة فجاة » وقد وقع ما تمناه وكان يؤمن بوجود الله وخلود النفس .. وفى ذلك قوله : « وانى لاعجب كيف يستطيع امرؤ أن يجد لذة او معنى فى الحياة اذا خلا قلبه من الايمان بالله وخلود النفس »

ومضى جرجى زيدان فى سن باكرة .. صرعه الجهد الضخم الذى بذله وعجل به رغبته فى ان يطالع اسرار الوجود والازلية

رحمه الله رحمة واسعة

رحلاته

من المفكرين من يكتفي بالرحلة عبر المؤلفات والكتب والمجلدات ، يطالع خلالها صور البلاد واخلاق الناس وتطور المجتمعات وامور الامم ، ومنهم من يسافر طويلا يعبر البحار وينتقل من قطر الى قطر يتحدث مع الناس ، ويشاهد المتاحف والآثار

وقد جمع جرجي زيدان بين الرحلتين ، فسافر طويلا فى أعماق الكتب ، وسافر كثيرا فى اقطار الارض وهو كأهل الشام مغرم بالرحلة ، محب للهجرة ولا شك أن أدبه وانتاجه التاريخي قد افاد كثيرا من هذه الرحلات التى من ابرزها رحلته الى اوربا حيث زار انجلترا وفرنسا وسويسرا ورحلته الى استامبول والسودان ومصر

وقد كتب عن رحلته الى اوربا عام ١٩١٢ رسالة قصيرة ولكنها غنية بالمعلومات والابحاث ، واسلوبه فى كتابته عن الاسفار يختلف كثيرا عن اسلوب الادباء الذين يحفلون بالحديث عن البحر والقطار والباخرة والطريق وهو يؤثر كعادته اسلوب العلماء الجاد الصارم الى ابعد مدى فى الجد ، ويصور هذا المعنى فى مقدمة الرحلة فيقول :

« قضينا صيف هذا العام فى أوربا بين فرنسا وانجلترا وسويسرا وتنقلنا فى اهم مدائنها فزرنا مرسيليا وليون وباريس ولندن وكمبردج ومنشستر واكسفورد وجنيف ولوزان وافيان ، ودرسنا احوالها وتفقدنا متاحفها ومكاتبها وآثارها ، وتوخينا النظر على الخصوص فيما يهم قراء العربية من احوال تلك المدينة التى اخذنا فى تقليدها منذ قرن كامل ونحن نتخبط فى اختيار ما يلائم احوالنا منها

وسنغفل سياق الرحلة فلا نذكر رحيلنا او نزولنا ولا ما لاقيناه او كابدناه فى اثناء ذلك على ما جرت به عادة اهل الرحلة ، اذ ليس غرضنا أن يكون ماتكتبه دليلا للراحلين الى السفر ، والنزول ومعرفة الطرق والمسافات والاجور

وانما نريد ان نمثل للقارىء ما طبع فى ذهننا اثناء هذه الرحلة بعد اعمال الفكرة فى احوال تلك الامم .. »

وهنا يظهر « جرجي زيدان » فى اهابه وفى شخصيته التى نعرفها دائما ، الرجل الباحث العالم الذى ينظر الى الامور من اعماقها ويدرس أمور الحضارة ويقارن بين مجتمعنا ومجتمعهم فيما يجوز لنا اقتباسه او نقله وهو فى دراسته هذه معتدل الراى كدابه دائما ينعى على الغرب تفريطه فى امر المراة ، فيقول :

« .. انهم اساءوا الى ذلك المخلوق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة ، ارسلوا المراة الى الاسواق تخالط الشبان وتبايعهم ، وهى ضعيفة حساسة فتعرضت لمفاسد كثيرة ... انما خلقت المراة اما تدير العائلة وتربى الاولاد وتعليمها ضرورى للقيام بمهمتها الطبيعية فى الشئون العائلية اما تكليفها باعمال الرجال فانه خارج عما خلقت له الا اذا اضطرت اليه لاسباب قهرية .. »

وهو فى عرضه لرحلته يتناول الحكومة والعمران والحالة الاقتصادية والعلمية لكل قطر يزوره ، ثم يتحدث عن المسارح والتمثيل ومظاهر الحضارة من مركبات وازياء ، وينتقل الى نظام الاجتماع من طبائع وجمال وطعام وشراب، ثم يتحدث عن الحياة العامة والمراة ثم يتحدث عن الآثار والمتاحف والمكتبات بافاضة ، ذلك ان هذه الاماكن هى منازل وحيه ولطالما امضى الساعات فى المتاحف والمكتبات باحثا عن نص او كتاب مخطوط او اثر قديم غير معروف ليضيف به الى ابحاثه مزيدا من الضياء

وهو يبحث فى اخلاق الامم التى يمر بها ويعالجها فى هدوء ولايبالى ان ينقد اى امة وقد نقد الانجليز فى كتابه هذا بجراة فقال : « ومما يوجه الى الانجليز من الانتقاد انهم آنانيون يحبون الاستئثار بالمنافع لانفسهم ، وهو خلق فطرى فى الانسان ولكن يظهر فى الانجليزى لانه لايبالى ان يظهره ويتمسك به ولا يهمه ما يسميه الآخرون اريحية او نجدة ويعدون ذلك من اسمى المناقب فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه .. »

وقد اعجب جرجى زيدان بجنيف واخذ يقارنها بالاستانة فى جمال شواطئها وتلالها المكسوة بالاشجار وذلك قوله : « وكنا لما زرنا الاستانة منذ بضعة اعوام ادهشنا بسفورها بما على شاطئيه من التلال المكسوة بالاشجار والقصور وقلنا انها فريدة فى العالم

فلما شاهدنا « جنيف » وضواحيها اذا هى كثيرة الشبه بالبوسفور من حيث مناظره الطبيعية .. »

وزار قرية فرناى بجوار جنيف « وهى القرية التى قضى فولتير اعوامه الاخيرة بها ، وفيها منزله هناك معروض للفرجة بما فيه من الاثاث والادوات فى غرفة النوم والمكتب والمائدة مما يبعث على التفكير فى مصير الانسان ، وانما اثر فى خاطرنا على الخصوص تمثال لفولتير يضعه اهل القرية فى مدخل قريتهم فوق قاعدة من الرخام »

وكان من اهم ما لفت نظر جرجى زيدان فى رحلته ابناء سوريا وجدهم ونجاحهم « ومما يوجب الفخر اننا عرفنا فى باريس غير واحد من الادباء السوريين يجارون أدباء فرنسا فى آداب لسانهم ويكتبون فى أكبر جرائدهم السياسية فى اهم الموضوعات الحيوية ويؤلفون الكتب وينظمون الشعر .. »

ولا ينسى فى هذه المناسبة ان يذكر الخلق السورى فى صلابته وقدرته على مواجهة الحياة والانسياب معها فى كل بلد يحل فيه .. « تخلق السوريون باخلاق المحافظة على الوقت والصدق فى المعاملة والتأنى فى الحكم ، وهى مزية للسورى على سواه تعنى قدرته العجيبة فى تطبيق احواله على الوسط الذى يعيش فيه .. »

ولا شك ان هذا المعنى يعطينا فى هذه الدراسة مزيدا من الفهم لشخصية جرجى زيدان الذى احب مصر واحب العربية وخدمهما فى اخلاص وجد طوال حياته

ولم تقف رحلة جرجى زيدان عند هذا الحد ، بل انه طاف مصر من اقصاها الى اقصاها فى زيارة واسعة النطاق لم يدع اثرا من آثارها ولا مكانا من أماكنها التاريخية دون ان يرتاده وذلك فى سبيل كتابة تاريخ مصر الحديث ، وهو يصور هذا فى قوله : « .. وقد عنيت

اتماما للفائدة تفقد الآثار العربية بنفسى فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، وزرت ما هنالك من البيانات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها وتسلقت ما صعب مسلكه فيها ولا سيما أسوار القاهرة وابوابها

ومن هذه الاماكن ما تداعت أركانه وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة ، فكثيرا ما كنت اخاطر بحياتى لهذه الغاية ، ومن الآثار العربية التى تفقدتها ما عدا الجوامع والمشاهد والتكايا والشوارع قصر الشمع او دير النصارى فى مصر القديمة ودار التحف العربية فى جامع الحاكم بشارع النحاسين

اما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها ايضا ولا سيما ما هو منها فى مصر العليا مبتدئا من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادى حلفا آخر حدود مصر فزرت خرائب سقارة واسنا وطيبة والكرنك وبيبان الملوك وجبل السلسلة وانس الوجود وابو سنبل وغيرها

ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئا بالمطرية فانتريب فغيرها وفى مصر العليا فضلا عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنايات بناها المماليك او غيرهم فى حال محاربتهم حكومة البلاد او دفاعهم كل هذه الاماكن تفقدتها جيدا اتماما لمعدات التأليف .. »

ولعمرى هذه امانة المؤرخ ، المؤمن بواجبه ، يتحمل المشاق ويذهب الى اقصى الارض ليبحث وليرى ، فى اوربا يبحث عن المؤلفات والمراجع ويشاهد المتاحف والآثار والمكاتب ويراجع ويحصى ويدون ملاحظاته ويكتب مذكراته وفى مصر يشاهد كل اثر من الآثار ليستطيع ان يكتب لمصر تاريخا صادقا قوامه المراجع والمرئيات

وهذا ولا شك عمل جديد لم ينهجه مؤرخ فى العصر الحديث قبل جرجى زيدان

سطور من حياته

- انشأ فن القصص التاريخية فى الادب العربى على نحو مافعل « ولترسكوت »
- الرائد الذى ارخ تاريخ « التمدن » الاسلامى وتاريخ الادب العربى لأول مرة
- لا يؤيد فكرة معينة ولكن يعمل على نشر الثقافة وحدها
- ينقل فكرته الى قارئه بالفاظ بسيطة خالية من الركاكة والتعقيد
- كان فى تسامحه القدوة الصالحة للمؤرخ
- المؤرخ الذى لا يتعصب ولا يتحيز ولا يداهن ولا يجامل
- علم أدباء البلد كيف يتناظرون دون أن يتشاتموا
- أنجز فى ربع قرن ما يعجز الاقران عنه فى قرن كامل
- كان صديقا للجميع ولكنه كان عدوا لنفسه فلم يشفق على جسمه وذهب شهيد العمل الشاق
- له فضل على التاريخ العربى ببيان ما لم يسبق عليه من آثار المدنية العربية وتاريخها
- لم يشك دنياه مرة بمحضر من أحد ولا تمنى على أحد شيئا باشارة أو مصارحة
- ما عرف رجل أجمع منه للنقيضين الكبر والاتضاع
- كان الكساء والطعام والرياش أعراضا فى نظره لا يعتد بها
- كان بزهده وتعففه يقتنى تلك البشاشة الدائمة التى لاتنطفىء ولا تغيض
- يبتدىء فضل جرجى زيدان بأنه علم نفسه ثم أصبح معلما لغيره مدى حياته

- لا يوجد من ترك فى العصر الاخير كمية كبيرة من العمل العلمى والادبى الجدى مثله
- كان كاتبا مؤرخا ، ومنشئا قصصيا وباحثا اجتماعيا ومنقبا لغويا وفيلسوفا عمرانيا لأنه طرق أبواب كل هذه العلوم فى كتبه
- رأى أن التاريخ يصعب تعميمه فعمد الى صوغ حقائقه فى قالب روائى
- رجل من قمة رأسه لاخمص قدميه كما يقول شكسبير
- كان قبيل وفاته واقفا وقفته لم يقلل من ساعات العمل ولم يتضجر ولم يتأفف من كثرته
- مؤلفات جرجى زيدان جداول وليست شلالات وهى بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللمحات
- الطبع السليم هو أساس تفكير جرجى زيدان يمده الاطلاع الواسع والبحث العلمى الحديث
- جرجى زيدان أقرب لمدرسة الحكمة منه الى مدرسة العلوم الطبيعية
- ما زال يصارع الحوادث وتصارعه حتى بلغ من العرفان ما ابلغه الطريق الذى توخاه
- كل ما كان حوله من أول نشأته وما اعترضه فى طريقه كان يهيئه لأن يكون فى الحياة شيئا
- وهب نفسه للعلم كما يهب العابد نفسه للدير
- عرض التاريخ الاسلامى عرضا جذابا يقرب أعقد المسائل الى أبسط الاذهان
- تغلب على أبحاثه النظرة التاريخية للموضوع والتسلسل المنطقى فى التفكير والنمط التعليمى فى تحديد الموضوع
- ضحى بجمال اللفظ لجمال المعنى ، وبرصانة الاسلوب ليفهم الجمهور ويدفع القدماء لمجاراة روح العصر

- كان شعبيا فى علمه وفى أدبه ولكنه كان بعيدا كل البعد عن الاسفاف والابتذال
- خطته فى عمله التوفيق بين القديم والحديث والجمع بين محاسن الشرق ومحاسن الغـرب وبين ميراثنـا المعنوى وما تنتجـه القرائح فى البلاد الناهضة
- وضع بخطته الكريمة فى مناظرة خصـومه أول حجر فى بناء تقاليد جديدة فى المحيط الادبى